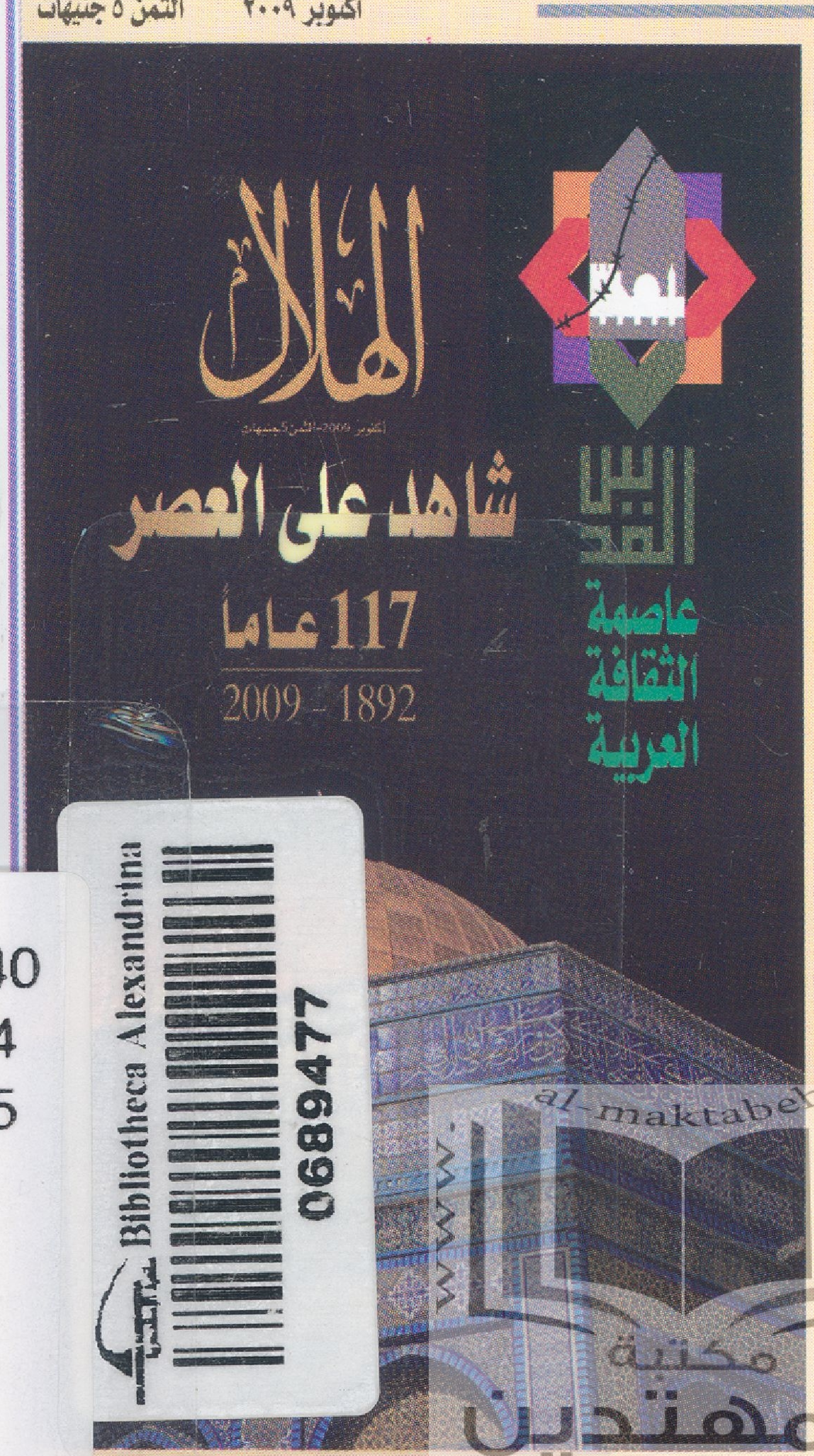

كتاب الهلال
جرجي زيدان
الصهيونية
تاريخها وأعمالها
دراسة وتقديم : حلمى النمنم

مجلة الفكر والثقافة الأولى فى مصر والعالم العربى

عدد جديد مميز..

أكتوبر ٢٠٠٩ الثمن ٥ جنيهات



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

عادل عبد الصمد

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

المدير الفنى

محمود الشيخ

مدير التحرير

أحمد شامخ



الإصدار الأول / يونيو ١٩٥١

الإدارة

القاهرة ، ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) ، المكاتبات : ص . ب : ١١ العتبة ، القاهرة ، الرقم البريدى ١١٥١١ ، تلغرافيا : المصور ، القاهرة ج . م . ع .

تلكس :

Telex 92703 hilal u n

فاكس :

FAX: 3625469

ثمن النسخة : سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنية

البريد الإلكترونى : darhilal @ idsc. gov. eg

جرجى زيدان

الصهيونية تاريخها وأعمالها

دراسة وتقديم :

حلمى النمنم



الغلاف للفنان : عبادة الزهيرى

رقم الايداع :
١٧٦٣٤/٢٠٠٩
I.S.B.N
077-07-1373-2



مقـــدمة

لو..!!

يتعامل بعضنا مع التاريخ ومع وقائع الحياة وإن شئنا الدقة كوارث الحياة بمنطق «لو»..

ويعلمنا علماء اللغة أن «لو» هى حرف امتناع لامتناع، أى امتناع مابعدها لامتناع ماقبلها، ورغم هذا فإن فريقا منا يحتكم إلى «لو» كثيراً، ويأخذ ذلك الاحتكام طابع نقد الذات وجلدها حينا، أو إلقاء اللوم والمسئولية فيما حدث على طرف بعينه.

وهكذا فى مسألة فلسطين وإسرائيل يطلق بعضنا «لو» كثيراً : لو اعترف العرب بقرار التقسيم .. لو لم يدخل العرب حرب ١٩٤٨ .. لو اعترف العرب

بإسرائيل وأقروا قيامها من اللحظة الأولى، واتجهوا إلى السلام معها..!!

«لو» هنا هى حالة من التعبير عن العجز بلوم الذات وجلدها.

قبل هذه المرحلة كانت هناك «لو» أخرى .. وهى لو أن المثقفين والكتاب العرب انتبهوا إلى ما يجرى على أرض فلسطين منذ نهاية القرن التاسع عشر، لما تطورت الأمور وتأزمت على هذا النحو، الذى توشك معه فلسطين أن تضيع .. ولو أنهم قاموا بدورهم المفترض لما وقعت المأساة.

وهذا الكتاب هو محاولة للتفتيش فى «لو» الأخيرة وتفنيدها، لقد انتبه الكتاب، وتنبهوا وحذروا من اللحظة الأولى، لكن أحدا لم يتعامل بجدية مع التنبيهات ولم تتم الاستجابة للتحذيرات، التى أطلقها الكتاب.

منذ نهاية القرن التاسع عشر وعدد من الكتاب يكتبون ويصرخون بأن مايجرى فى فلسطين ليس هجرات عادية، بل تهويد كامل، لا يهدف إلى إقامة دولة على أرضها لليهود فقط، بل يسعى إلى طرد العرب الفلسطينيين منها.

وكان جرجى زيدان واحداً من هؤلاء الكتاب ، زار فلسطين وعاين مايجرى ونشر على صفحات «الهلال» ما رأى .. وقد سبق لى - فى كتاب سابق - أن درست محاولات هؤلاء الكتاب ورؤيتهم للوضع فى فلسطين ، وكان لكل منهم رأى وموقف: رشيد رضا.. شبلى شميل .. شكيب أرسلان .. جرجى زيدان، وغيرهم، قال كل منهم كلمته ومضى، لم يستمع أحد ولم ينتبه أحد، وكأن الأمر برمته لم يكن يعنى أحدا فى عالمنا العربى كله.

قال رشيد رضا: إما أن نوقف الهجرات اليهودية إلى فلسطين نهائياً أو نتفاهم مع المهاجرين.

وقال شكيب أرسلان: لنسمح لهم بإقامة قرى متباعدة فى ظل رعاية الدولة العثمانية، وانهارت الدولة العثمانية والقرى المتباعدة التحمت وصارت مدنا ودولة.

وقال شبلى شميل: دعوهم يزرعون ويعمرون الأرض فالأرض لن يزرعها وطالبنا أن نتعلم منهم استصلاح الأراضى و.... ومر كلام هكذا .. لا اختلف معه أحد ولا اتفق ولا اهتم أى أحد بالمناقشة.

وصرخ جرجى زيدان بأن الوضع لو بقى فى فلسطين على ماهو عليه، ففى عشرات السنين لن يكون للفلسطينيين مكان فى وطنهم وعلى أرضهم، ولن يبقى للعرب وجود هناك.

كان زيدان مختلفا عن غيره من المفكرين العرب، فقد قدم معظمهم رأيه وطرح فكرته، هو فعل الشئ نفسه، لكنه زاد عليهم أنه كان شاهد عيان، لقد رأى بعينيه وعايش الأمر داخل فلسطين.

ولتنشيط الذاكرة الثقافية والوطنية يهتم هذا الكتاب بالنص الكامل لرحلة زيدان إلى فلسطين، حيث لم يسبق أن نشرت فى كتاب، وظلت حبيسة صفحات الهلال منذ سنة ١٩١٣.

شعور بالمسئولية تجاه فلسطين وما يجرى على أرضها، ووفاء لجرجى زيدان وللهلال يأتى هذا الكتاب، الذى اكتملت مادته لدىّ قبل عدة سنوات، ولم يكن ممكنا نشره خارج «الهلال»، كما لم يكن ممكنا نشره فى «الهلال» قبل سنوات .. وقد آن الأوان.

حلمى النمنم

جرجي زيدان
حياة من البحث والمعرفة

جرجي زيدان حالة فريدة بين الكتاب والباحثين في الثقافة العربية المعاصرة، لا يشبهه في ذلك إلا عباس العقاد ، فقد علم زيدان نفسه بنفسه ، ولم ينل تعليماً نظامياً بالمعنى الذى نعرفه، ولا بالمعنى الذى تكون به مجايلوه ، أو من سبقوه بجيل، مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك والشيخ محمد عبده، وغيرهم.

ولد جرجي فى بيروت ، مطلع العقد السابع من القرن التاسع عشر، تحديدا فى ١٤ ديسمبر ١٨٦١ ميلادية، والده حبيب زيدان كان رجلاً أميا، لم يتح له أن ينال أى قدر من التعليم ، وكان يعمل فى مطعم صغير بساحة البرج فى بيروت، ساحة الشهداء حالياً، وذكر بعض كتاب سيرة زيدان أن المطعم كان مملوكا لحبيب.

دفع حبيب بولده جرجي في سن الخامسة إلى مدرسة حرة أى غير نظامية ، يديرها القس «إلياس شفيق، والواقع أنها لم تكن مدرسة بالمعنى المعروف، بل أقرب إلى الكتاب فالأطفال يجلسون على حصير بال.

قضى جرجي في مدرسة إلياس حوالى عامين ، تعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة، أو ما نسميه اليوم «فك الخط» .. وذلك ما كان يريده والده من التعليم، أن يعرف المبادئ الأولى التي تمكنه من تدوين أسماء زبائن وحسابات المطعم، لكن والدته كان لها هدف آخر، وهو أن يتعلم ابنها ويتجنب مصير والده، لذا كانت تلح على زوجها حبيب أن يدفع بابنها إلى المدرسة، وهكذا ألحقه بعد مدرسة القس إلياس ، إلى مدرسة الشوان ، حيث تعلم بها النحو والصرف ومبادئ الحساب والأهم من ذلك اللغة الفرنسية، وقضى بها نحو عامين، ومنها إلى مدرسة المعلم طاهر خير الله واستمر بها عامين ، وهكذا مدارس حرة أو أهلية، لا تمنح من تخرج بها شهادة ولا تدخله في امتحان ، فقد كانت بيروت في لحظة تاريخية مضطربة، خرجت من تبعية محمد على وابنه ابراهيم باشا ، لتعود إلى الحكم العثماني ، الذى لم يكن يهتم بالتعليم ولا

تقديم خدمات للمدن العربية التى تقع تحت حكم ولاة آل عثمان، آخر مدرسة التحق بها جرجى كانت خاصة بالمعلم سعود الطويل لتعلم اللغة الانجليزية ، وقضى بها خمسة شهور، فى نهايتها كان قد ألم بالإنجليزية .. وعند هذا الحد انقطع عن التعليم واتجه لمساعدة والده بالمطعم ، الأمر الذى كانت تكرهه والدته، عمل مجهد وعائد مادى محدود ، وأخذت تلح حتى ترك المطعم وذهب لتعلم صناعة الأحذية ، وأوشك على اتقانها لكنه تركها، لم يحب هو تلك المهنة، وقيل أن الجلوس وقتاً طويلاً على الأحذية لم يكن يناسب صحته، وهو قول يصعب تصديقه، اتجه جرجى بعدها للعمل فى محل لبيع الأقمشة، وفى كل هذا كان يميل إلى القراءة والتعرف إلى وجوه الثقافة والمعرفة فى بيروت، فقد قرأ كتاب «مجمع البحرين» للشيخ إبراهيم اليازجى.. وفى تلك الفترة انضم إلى جمعية «شمس البر» فى بيروت، وهى جمعية تأسست فى ١٨٦٩ ، وكانت تتبع جمعية الشبان المسيحيين فى لندن، وكان معظم أعضائها من طلاب وخريجى المدرسة الأمريكية فى بيروت، الجامعة الأمريكية حاليا، وكان بين أعضائها عدد من رموز الثقافة والمعرفة فى بيروت وبلاد الشام كلها مثل

سليم وبطرس البستانى، ود. يعقوب صروف ود. فارس نمر، وغيرهم .. هكذا وجد زيدان نفسه وسط هذا الحشد من الدارسين والمتعلمين، وكان يدعي معهم إلى حفلات المدرسة الأمريكية، ولعله شعر بالفارق الكبير بين هذه المدرسة والمدارس التى سبق له أن التحق بها، ويجب القول إن المدارس آنذاك كانت نوعين .. الأول عرفه زيدان ويمثل المدارس الأهلية المتواضعة، والتى يقوم عليها غالبا رجال الدين، من المسلمين أو المسيحيين ، الثانى .. المدارس الإرسالية، ومع ضعف الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر، انتشرت هذه المدارس فى معظم المدن العربية، خاصة فى منطقة الشام، وعرفت بيروت والقدس وعكا وغيرها الكثير من هذه المدارس، وكانت كل مدرسة تتبع بلدا أجنبيا ، مثل بريطانيا وفرنسا والمانيا وروسيا وأمريكا ، وكانت المدرسة الأمريكية فى بيروت واحدة منها، وحين رأى جرجي هذه المدرسة وقارن بينها وبين المدارس المتواضعة التى عرفها، شعر بالحزن لنفسه وربما لأهله ومجتمعه جميعا، الذى حرم التعليم الحديث والمعرفة، لذا صمم على أن يلتحق

بهذه المدرسة وأن يدرس الطب، هل كان متأثرا في ذلك بالدكتور صروف وغيره ؟

هل بسبب الوجاهة الاجتماعية للأطباء «حكيم باشي»..؟

كان الالتحاق بدراسة الطب يتم عبر امتحانات علمية يجتازها الطالب، ولم يكن هو قد درس ولا عرف شيئاً منها، ولفت زملاؤه انتباهه إلى ذلك ، لكنه كان مصمما ، وخلال ثلاثة شهور، كان قد تعلم هذه المواد من خلال صديق له ، وحين دخل الامتحان ، كان جاهزاً ومستعدا فأحرز تفوقا، وصار طالبا بالفعل ، وأتم العام الدراسي الأول بنجاح ، وفي بداية العام الثاني وقعت مشكلة في المدرسة بين الطلاب وإدارة المدرسة ، ترتب عليها أن غادر الطلاب جميعا مدرستهم ، فدرس الكيمياء في هذه السنة وامتحن في علوم الصيدلة، وهنا كان قد وصل إلى الحد الأقصى من التعليم الذي يمكنه أن يناله في بيروت، لذا اتخذ قراراً جريئاً بأن يغادر بيروت إلى القاهرة ليواصل دراسة الطب في مدرسة قصر العيني.

كان الانتقال من بيروت يتم غالبا عبر البحر إلى الإسكندرية، وكان ذلك يقتضي بعض النفقات، ولم يكن لدى

جرجى زيدان شيء منها، ولم يكن لدى والده الفقير ما يعطيه إياه ، لذا اقترض من جار له مبلغ ستة جنيهات ، وقد أعطاها له على أن يردها «حين ميسرة» ، هكذا كان التعامل بسيطا ويقوم على حسن النوايا، وفى أكتوبر ١٨٨٣ وصلت السفينة ميناء الاسكندرية وخطت قدما زيدان أول مرة هذه المدينة ، وهاله ما رأى فيها.

كان عام قد مر على هزيمة أحمد عرابى واحتلال انجلترا لمصر ، وكانت الاسكندرية هى المدينة التي تلقت الهجوم الأول، وكانت طوابيها قد قاومت وصمدت بعض الوقت، مما أدى إلى ازدياد شراسة هجوم الإنجليز وتدميرهم للمدينة، وكانت مشاهد التدمير واضحة وما تزال ملتهبة فى نفوس الأهالى ، ولم تكن الأنقاض قد رفعت بعد ، ولا أزيلت آثار الحرائق والخراب ، وقد سجل زيدان ذلك كله، فيما بعد، فى كتابه عن تاريخ مصر، لم يمكث زيدان بالإسكندرية غير أيام عدة ، اتجه بعدها إلى القاهرة كى يقابل عيسى باشا حمدى ناظر مدرسة الطب ويلتحق بالمدرسة.

فى القاهرة حدث له تحول ، حيث قرر عدم دراسة الطب، فقد وجد أن ذلك يستغرق عدة سنوات، وهو كان قد أتم ٢٢

عـامـا من عـمـره ، ومـعـنـي هذا أن يتـخـرج وهو على حـافـة الثـلاثين من العـمـر وهـي آنذاك ، واليـوم أيضـا ، سن متـأخـرة بالنسبة للخريج ، وهكذا اتـخذ قراره بعدم الدراسة وأن يتـجه إلى العمل ، واختار عملا لا يبتعد كثيرا عن التعلم والدراسة والمعرفة، قرر أن يعمل صحافيا، فذهب إلى جريدة «الزمان» وكانت الجـريدة اليوميـة الوحيدة بالقاهرة، وكان صاحـبـهـا ومديرها ، أرمنى من المشتغلين بالصحافة.

لم تكن الصحافة المصرية - آنذاك - بخير ، ولذا كانت فرصـة زيدان فى الاختـيار مـحـدودة ، كان الإنجليز ومعـهـم الخـديو مـحـمـد توفـيق وناظر النظار رياض باشـا، المستـبد العتيد ، قد أغلقوا معظم الصحف ، وترصدوا للصحفيين ، خاصة الوطنيين ، وفى حالة الحزن والإحباط العام ومع قسوة الحكم، لم يكن متاحا للصحف أن تعالج القضايا بما تستحق من عمق ، لذا كـانت مـعظم الصحف وقـتـهـا مملوكـة لغـيـر المصريين ، وكان يعمل بها كثيرون من غير المصريين ، وكانوا يتجنبون الخوض فيما لا يريده الانجليز ولا يطالبون المحتل بالخـروج ، فى تلك الظروف عمل زيدان بـالزمـان ، وظل بـهـا عـامـا وعـدة شـهـور ، حيث توجـه سنه ١٨٨٤ إلى السـودان ،

وقبل أن يغادر كان قد بعث إلى جاره البيروتى بالمبلغ الذى اقترضه منه ، قبل السفر.

كانت بريطانيا جهزت حملة عرفت باسم «الحملة النيلية» أو حملة «إنقاذ غوردون» وكانت تهدف إلى إخماد الحركة المهدية فى السودان ، كانت المهدية قد نشطت وسعت إلى الزحف على مصر لتخليصها من الاحتلال الانجليزى، وكان موقف الچينرال غوردون فى السودان متعثراً ، فتقرر تدعيمه بحملة مكونة من ستة آلاف فرد، ونظر الإنجليز المتجهون فى هذه الحملة ، إلى مهمتهم على أنها رحلة عبر النيل ، وكان زيدان فى هذه الحملة بقسم المخابرات الحربية بالحملة ، مترجما بها، وقد أثار اشتراكه فى هذه الحملة الكثير من التساؤلات ويبدو أنه أراد منها التعرف على منطقة جديدة ، ومر فعليا بالتجربة كاملة ، رأى رؤيا العين بعض المعارك والعمليات الحربية فى السودان وقد استغرقت هذه الرحلة عشرة أشهر، وتناول هو تلك الرحلة فى كتابه الذى أصدره فيما بعد، عن تاريخ مصر الحديث.

عاد جرجى إلى بيروت سنة ١٨٨٥ ، إثر تلقيه دعوة من المجمع العالمى الشرقى، كان المجمع تأسس قبل ثلاثة أعوام،

أي قبل أن يغادر بيروت إلى الاسكندرية، أول مرة، وكان أصدقاء زيدان من بين مؤسسي المجمع، كانوا يعقوب صروف واليازجي والبستاني وفارس نمر وغيرهم ، وقد أرادوا ضم زيدان إليهم - وبالتأكيد أسعدته هذه الدعوة ، فها هو صار زميلا وربما ندا لمن أعجب بهم ، وسعى قبل سنوات قليلة أن يتعلم ويرتقي مثلهم ، وكانت هذه الدعوة أول اعتراف على هذا النطاق به كمثقف وكاتب، والواقع أنه لم يخذلهم ولم يخيب ظنهم ، ففي بيروت عكف على تعلم اللغة العبرية وكذلك السريانية ، والأهم من ذلك أنه وضع كتابه الأول «الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية» .. وصدر في بيروت سنة ١٨٨٦ ، ودشن هذا الكتاب جرجي زيدان باعتباره باحثا مدققا، واسع الاطلاع وعميق الفهم - ومازال هذا الكتاب يطبع ويدرس في بعض الجامعات ، إلى اليوم .

في نفس السنة انطلق زيدان من بيروت في رحلة إلى لندن ثم عاد إلى القاهرة ليعمل بمجلة المقتطف ، وكان يقوم بعدة مهام بها ، إدارة وتحريرا ، وإن كان محمد عبد الغني حسن في دراسته له يصر على أنه كان إداريا بالمجلة فقط، وكان يتقاضى راتبا شهرياً قدره ثمانية جنيهات، وهو مبلغ كبير،

آنذاك، ولم يستمر فيها أكثر من سنتين ، فقد استقال منها سنة ١٨٨٨ ، ليتفرغ للكتابة والتأليف، وقد أصدر فى نهايتها كتابه «تاريخ مصر الحديث» وفى العام التالى أصدر كتابه المهم عن تاريخ الماسونية العام ، وكان زيدان قد انضم إلى المحفل الماسوني، وكان ذلك شأن كثير من كبار الكتاب والسياسيين والمصلحين آنذاك ، مثل جمال الدين الأفغانى ، فقد كانت الماسونية تتمتع بسمعة إيجابية وظلت كذلك لعدة عقود أخرى.

عاد زيدان إلى بيروت مع نهاية ١٨٨٩ ، فقد تم استدعاؤه من المدرسة العبيدية ، كى يتولى إدارة ومسئولية تدريس اللغة العربية بها ، كانت المدرسة تتبع طائفة الروم الأرثوذكس ، وكان صاحبها روفائيل عبيد، وهو من المهتمين باللغة العربية .. وقضى زيدان هناك حوالى العامين، وضع خلالهما روايته التاريخية الأولى «المملوك الشارد» وفى سنة ١٨٩١ عاد نهائيا إلى القاهرة، حيث أسس مع نجيب مترى - مؤسس دار المعارف - مطبعة مشتركة ، ولم تدم الشراكة بينهما ، فقد استقل زيدان بالمطبعة وأطلق عليها مطبعة الهلال ، وأسس نجيب مطبعة المعارف.

نلاحظ أن حياة زيدان طوال تلك السنوات ، كانت تتميز بالقلق وعدم الاستقرار ، هو لا يستقر فى عمل ولا فى مكان ، ينتقل بين مصر ولبنان ، سافر إلى السودان وإلى أوروبا ، وعمل فى أكثر من موقع، ورغم النجاح الذى كان يحققه فقد كان قلقا، ذلك النوع من القلق الإيجابى ، الذى يدفع صاحبه إلى مزيد من التقدم والنجاح ، والآن فى مطلع عام ١٨٩٢ ، كان زيدان صاحب مطبعة، وكان مقرها الفجالة، وتحقق المطبعة نجاحاً، وهو كذلك كاتب، له العديد من الأعمال المتميزة، وكان يتجه إلى الاستقرار ، بأن أسس مشروعه الخاص، مجلة الهلال، فى سبتمبر ١٨٩٢ .

ولم يكن ممكنا أن تصدر الهلال قبل ذلك ، ففى سنة ١٨٩٢ تولى حكم مصر ، الخديو عباس حلمى، ومعه دخلت البلاد مرحلة جديدة، حيث بدأ الخروج من حالة الإحباط واليأس التى وقعت من جراء الاحتلال البريطانى لمصر، وقد أراد عباس حلمى أن يكون حكمه مختلفا، ولعله أراد أن ينتزع سلطاته كحاكم وسيد البلاد من اللورد كرومر الاستعمارى المتغطرس ، وهكذا فقد أصدر عفوا عن عبدالله النديم ، خطيب الثورة العرابية بل أكثر من ذلك عاد النديم

إلى نشاطه السابق ، حيث أصدر مجلة الاستاذ، وهكذا بات المناخ العام فى مصر جاهزا لاستقبال مطبوعات جديدة ، فكانت الهلال التى صدرت مجلة شهرية، وكانت تقع فى ٣٢ صفحة ، ولم يكن غريبا أن يعبر زيدان عن تقديره للخديو عباس حلمى، وكذلك للسلطان الأعظم، السلطان العثمانى فى افتتاحية العدد الأول ، كانت مصر لا تزال خاضعة من الناحية الرسمية للدولة العثمانية.

لا تحمل افتتاحية العدد الأول ما يمكن أن تعده بيانا تأسيسياً للمجلة ، بل هى كلمة أقرب إلى مفهوم التقديم العام أو لنقل ضرب من العلاقات العامة، فيها كلام طيب إلى جمهور القراء والكتاب وإلى الخديو وإلى السلطان العثمانى، لكن فى العدد الأول نجده يكتب على صفحتى ٢٦ ، ٢٧ تحت عنوان «مسائل تحتمل وجهين وفيها مجال للبحث» وقد حدد ثلاثين مسألة، مازال بعضها مطروحا علينا إلى اليوم، هذه المسائل تكشف أننا بإزاء باحث ومفكر ملم بقضايا هذه الأمة وقد صاغها جميعا فى تساؤلات ، من بين تلك المسائل: هل يقود التعمق فى العلم إلى الكفر ؟ هل يفيد تأنى الشيوخ أكثر مما يفيد إقدام الشبان ؟ .. هل للمتقدمين فضل على التمدن

الحالى أكثر مما للمتأخرين ؟ .. هل نفعت العوائد الافرنجية أكثر مما أضرت؟ .. هل يكون الرأى العام فى جانب الإصابة دائماً؟ .. هل الغنى المادى أفضل من الغنى العلمى؟

ومن بين هذه المسائل ما يتعلق بالمرأة مثل: هل للنساء أن يطلبن كل حقوق الرجال؟ .. هل فى النساء كفاءة للقيام بأعمال الرجال؟

جعل زيدان من الهلال مجلة ثقافية بالمعنى الواسع للكلمة، لذا تناول فيها معظم القضايا العامة، والقضايا الوطنية والسياسية، لكن من المنظور الفكرى .. وكان يحررها وحده، ونشر بها معظم رواياته التاريخية، فضلا عن بعض كتبه ، مثل الجزء الأول من تاريخ التمدن فى الإسلام وغيرها.

جعل جرجى زيدان من الهلال ، جامعة للقارئ ، تقدم له المعرفة الدقيقة فى العديد من المجالات ، واهتم بالتاريخ العربى والإسلامى وتاريخ المنطقة العربية قبل الإسلام ، والتاريخ الأوروبى كذلك وأحاط القارئ بأحدث الاختراعات العلمية واهتم بالأفكار الجديدة.

نجحت «الهلال» نجاحاً كبيراً ، وأقبل عليها القراء فى مصر وفى العالم العربى ، فضلا عن قراء العربية فى بلاد

المهجر، ويجب القول أن هذا النجاح ينسب إلى جرجى زيدان ، فقد كان يقوم بكتابة وتحرير معظم موادها ، حتى أنه اضطر أن يجعلها مجلة نصف شهرية لبعض الوقت، وفى سنة ١٩١٠ تعرض زيدان لأزمة كبرى ، كان يمكن أن تعصف به ، لولا ما يتمتع به من هدوء أعصاب ورزانة ، والذى حدث أنه فى سنة ١٩١٠ استعدت الجامعة المصرية لافتتاح كلية الآداب، ولم يكن هو بعيداً عن الجامعة، فقد كان أحد الدعاة إلى تأسيسها ، ففى سنة ١٩٠٠ كتب فى الهلال مناديا بضرورة إقامة «كلية جامعة» فى مصر ، ولم يتوقف عن المناداة ، ولما افتتحت دعا إلى ضرورة إرسال مبعوثين إلى الجامعات الكبرى فى أوروبا ليدرسوا المناهج والعلوم الحديثة «ليعودوا ويعلموها هنا» .. وكانت إدارة الجامعة تتخذ خطوات مهمة لجعل الجامعة على أرقى حال ، وكتب مشيدا بذلك «سرنا أن يكون ولاة أمر هذا المعهد العلمى منزهين عن كل غرض غير خدمة الأمة المصرية» ، وفى تلك الاثناء تلقى زيدان خطابا بتاريخ - ١٦ يونيه ١٩١٠ - من إدارة الجامعة يحمل توقيع إبراهيم باشا نجيب رئيس الجامعة بالنيابة، يخبره فيه أن إدارة الجامعة قررت ترشيحه لتدريس مادة

تاريخ الأمم الإسلامية وتحديدا تاريخ مصر الإسلامية ، في المدة من شهر نوفمبر ١٩١٠ وحتى ١٥ مايو ١٩١١ ، على أن يلقي خلالها على الطلاب أربعين درسا (محاضرة) وأن إدارة الجامعة سوف تدفع له مبلغ مائتي جنيه مصرى، وجاء في الخطاب، «وحيث إننا نرى أن حضرتكم خير كفء لتدريس هذه المادة لما نعهده فيكم من سعة الاطلاع والهداية التامة نود لو كنتم تقبلون القيام بهذه المأمورية لما فيها من المنفعة العامة لخدمة العلم وفائدة أبناء هذا الوطن».

وكتب جرجي أنه حين تلقى الخطاب، شعر ببعض تردد والتخوف «ترددنا لحظة ، خطر لنا في أثنائها ما قد يثير تعييننا من القيل والقال لاختيارنا لهذا المنصب مع وجود من يقوم به من المسلمين ، وإن دلنا التاريخ على خلاف ذلك، فإن الخلفاء في صدر الدولة العباسية لم يستنكفوا من أن يستخدموا في نقل العلم تراجمة من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والسامري والمجوسي والصابئ وكذلك كان يفعل المسيحيون حتى في علوم الدين نفسه..»

وفي ١٨ يونيه سنة ١٩١٠ بعث زيدان إلى إدارة الجامعة بالموافقة ، وجاء في رسالته «أثنى على فضلكم لأنكم ظننتم

بى الكفاءة للقيام بهذا العمل الجليل ، وبما أن القبول به يعد من قبيل المنفعة العامة لخدمة العلم وفائدة أبناء الوطن كما ذكرتم فإنى أقبل ..»

وبدأ يعد المادة العلمية المطلوبة منه ، ثم أرسلت إليه إدارة الجامعة فى شهر سبتمبر من نفس السنة، تطلب إليه موافاتها بنصوص المحاضرات . وسلمها بالفعل ، وتقاضى المبلغ كله ، ثم بدأ لغط فى بعض الصحف واعتراضات على اختيار «مسيحى» لتدريس مادة التاريخ الإسلامى، وهاجم بعض الكتاب قرار الجامعة، وكانت كتابات زيدان فى التاريخ الإسلامى أثارت انتقادات بعض المشايخ، خاصة كتاب «تاريخ التمدين فى الإسلام» ولم يتوقف زيدان عند هذا الأمر، إلى أن فوجئ، بخبر نشرته جريدة المؤيد» مفاده أن مجلس إدارة الجامعة سوف يعقد اجتماعا يناقش فيه «هل يجوز أن يتولى تدريس التاريخ الإسلامى أستاذ مسيحى، وأن الأكثرية قررت أن لا يليق أن يتولى تدريسه إلا أستاذ مسلم ..؟» وهنا بدأ زيدان يستفسر فما نشرته «المؤيد» خبراً عن واقعة محددة ، وهى آنذاك أكبر صحيفة يومية فى مصر، وهى من أكثرها مصداقية وكذلك قريبة من بعض الدوائر الرسمية فى مصر

فى مقدمتها الخديو عباس حلمى نفسه ، ولم يطل قلق زيدان، فبعدها مباشرة زاره فى «الهلال» وفد من إدارة الجامعة ، وصارحوه أنهم تراجعوا عن دعوتهم السابقة له بتدريس مادة تاريخ مصر الإسلامية ، وأنهم فعلوا ذلك «مراعاة لعواطف الأمة» وتقبل هو الأمر برحابة صدر، واعتبره منتهيا ، لكن صداه فى الصحف المصرية لم يتوقف ، ما بين مهاجم له ومدافع عنه ، كان الأكثر هجوما عليه فريق من السلفيين ومن دافعوا عنه كانوا، على الأغلب ، من المنتمين إلى مدرسة الاستاذ الإمام محمد عبده، وكتب مصطفى لطفى المنفلوطى مندهشاً «كأنما لم يكفهم أن يروه بينهم مسيحيا متسامحا ، حتى أرادوا منه أن يكون مسلما متعصبا».

وظلت المحاضرات التى سلمها للجامعة، مخطوطة ومجهولة، حتى قام د. محمد حرب بإعدادها للنشر وصدرت فى كتاب الهلال - يناير ١٩٩٤ - بعنوان «مصر العثمانية».

وكان من حق زيدان أن يغضب ، فقد ثار السلفيون عليه وضغطوا على الجامعة كى تسحب قرارها بخصوصه ، بينما لم يجدوا غضاضة فى أن يقوم بالتدريس فى الجامعة بعض المستشرقين مثل نالينو وغيره، وكان بينهم المسيحى

واليهودى ، وقاموا بتدريس مواد تتعلق بالتراث والحضارة الإسلامية ، زيدان من جانبه عرض لتفاصيل الأزمة على صفحات «الهلال» وشكر زملاءه من الكتاب والصحفيين الذين خاضوا فى المسألة ودافعوا عنه قال «يعجز القلم عن أداء واجب الشكر لزملائنا أصحاب الصحف العربية والأفرنكية وغيرهم من أرباب الأقلام الذين خاضوا عباب هذه المسألة على اختلاف آرائهم وأحكامهم فيها فإنهم قد أحسنوا إلينا باحسانهم الظن فينا فوق ما نستحق جزاهم الله خيرا . وطوى هذه الصفحة تماما ولم يعد إليها ثانية .

يبدو أن زيدان قرر الخروج من هذه الأزمة وما صاحبها ، فقام فى نفس السنة برحلة إلى بلاد الشام، حيث زار سوريا ولبنان ، وبعدها بعامين قام برحلة إلى أوروبا ، كان ذلك فى صيف سنة ١٩١٢ ووضع عنها كتابا، صدر بعد وفاته بتسع سنوات (١٩٢٣) كانت الرحلة بين فرنسا وانجلترا وسويسرا، وقال فيما رواه عنها «توخينا النظر على الخصوص فى ما يهم قراء العربية من أحوال تلك المدنية التى أخذنا فى تقليدها منذ قرن كامل ونحن نتخبط فى اختيار ما يلائم أحوالنا منها» وتوقف عند ما يمكن أن يذكره عن رحلته .. «نقتصر

من ذلك على ما يهم القارئ والشرق من حيث حاجته إلى تحرى مدنية أولئك القوم فى نهضتهم هذه . وبين ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدنية بالنظر إلى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا،

وفى صيف سنة ١٩١٣ قام برحلة إلى فلسطين ويلاحظ الباحث كثرة رحلاته فى تلك السنوات، فقد كان نجله اميل زيدان» بدأ يكبر وأخذ يتحمل معه عبء الهلال، على الأقل من النواحى الإدارية وأمور الطباعة، وفى صيف سنة ١٩١٤، شهر يونيه تحديدا، أصيب بأزمة قلبية مفاجئة ، أودت بحياته، ومضى إلى ربه تاركا خلفه تراثاً من الجهد الثقافى والفكرى، مازال موضع اهتمام الباحثين والدارسين إلى اليوم.

المراجع

(١) أحمد حسين الطماوي: جرجي زيدان : سلسلة نقاد الأدب . الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) محمد عبد الغني حسن: جرجي زيدان . سلسلة أعلام العرب . سنة ١٩٧٠ .

(٣) طاهر الطناحي: ضمن كتاب عصاميون عظماء من الشرق والغرب
اشراف : محمد فريد أبو حديد. كتاب الهلال

(٤) انور الجندي: جرجي زيدان ، منشئ الهلال . مكتبة الأنجلو المصرية

(٥) د. سامي الدهان: قدماء ومعاصرون دار المعارف بمصر ١٩٦١ .



زيارة إلى فلسطين

زار جرجي زيدان أوروبا مرتين، الأولى كانت إلى لندن فقط سنة ١٨٨٦، وكان ذلك في بداية عمله بالصحافة وانشغاله بالكتابة، والثانية كانت سنة ١٩١٢ وشملت بريطانيا وفرنسا وسويسرا .. وزار خلالها العديد من مدن تلك الدول، فضلا عن متاحفها ومكتباتها وجامعاتها ووضع عنها كتابا وفي حين احتفى الدارسون برحلته الثانية بقيت رحلته الأولى موضع تساؤل عن دوافعها وأسبابها .

وفي سنة ١٩٠٨ بعد خلع السلطان عبدالحميد من الخلافة وصعود الدستوريين وأنصار الاتحاد والترقي في الآستانة، قام زيدان برحلة إلى العاصمة العثمانية، ليتابع الأحداث من هناك، خاصة وأن استبداد عبدالحميد وتسلطه كان قد فاق الحدود، وكان العرب، خاصة في بلاد الشام يعانون ويتذمرون من الاستبداد والتسلط العثماني .. والذين أرخوا

لحياة زيدان توقفوا عند هذه الرحلة ورحلته الأوروبية .. ويعتبر عدد من الدارسين زياراته إلى لبنان وبلاد الشام رحلات ويضعونها فى مصاف رحلته الأوروبية والتركية، ولايجب أن نعدها كذلك، فهو لبنانى أولا، وكان لابد أن يتردد على بيروت بين حين وآخر، هناك أهله وأصدقاؤه ومولده وطفولته وصباه أيضا .. وتوقف الدارسون كذلك عند رحلته إلى السودان، ولم تكن رحلة، بل عملاً ووظيفة، وقد كتب عنها فى تاريخه لمصر الحديثة .

وهناك رحلة قام بها زيدان فى صيف سنة ١٩١٢ إلى فلسطين، هذه الرحلة لم يشر إليها أحد من الدارسين والمؤرخين لجرجى زيدان، ولم تصدرها إدارة الهلال فى كتاب بعد وفاته-كما فعلت مع رحلته الأوروبية .. ولذا نسيها الجميع، كأن لم تكن .

رحلة زيدان إلى أوروبا، كانت عادية، فمنذ رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس، كان كبار الكتاب والمفكرين العرب يحرصون على زيارة أوروبا، وتحديدا فرنسا ثم انجلترا وألمانيا، ولدينا تراث ضخم من رحلات تلك الحقبة، بعد الطهطاوى هناك رحلات أحمد فارس الشدياق وعبدالله فكرى

وحسن العدل وخير الدين التونسى وغيرهم، لذا كان طبيعيا وعاديا أن يقوم زيدان برحلة أو أكثر إلى أوروبا، وقد أعد أحمد الصاوى محمد كتابا ضخما بعنوان «باريس» جمع فيه الأوصاف التى أطلقها المفكرون العرب حول هذه المدينة وحدها .. وفى عصر زيدان كان لابد للصحفى فى مصر، إذا أراد أن يستكمل مصادره وأدواته المهنية، فعليه أن يقوم بزيارة إلى الآستانة، عاصمة الدولة العلية، فهناك تصنع القرارات وتصدر الفرمانات المؤثرة سياسيا، كانت الآستانة وباريس ولندن هى مطابخ القرارات المؤثرة فى بلادنا ومنطقتنا، لكن فلسطين لم تكن الآستانة ولا باريس ولا هى لندن، كانت فلسطين جزءا من منطقة وبلاد الشام، ولم يكن الحكم فى الشام مركزيا، على غرار دولة مثل مصر، بل كان مجموعة من الولايات أقرب إلى الإقطاعيات و.. ولايات عثمانية، وكانت فلسطين فى العصر العثمانى تتكون غالبا من ثلاث مناطق ، القدس والقرى المحيطة بها .. ثم عكا ومدن الساحل على البحر المتوسط، وهناك نابلس وأجوارها . ثم خطر للدولة العلية بعد محاولة على بك الكبير الاستقلال بمصر والشام ثم حملة بونابرت وحملات

إبراهيم باشا، أن تعيد النظر فى هذه التركيبة، لتحد من نفوذ الولاة والأمراء .

وجرى فى سنة ١٨٨٣ إعادة تنظيم الشام، وهكذا الحق لواء «سنجق» عكا بولاية بيروت وضم إليها كذلك لواء نابلس .. أما لواء القدس فقد ضم بقية مناطق فلسطين ولم يخصص له واليا، بل انتقل إداريا إلى الآستانة نفسها، وكان يتولاه وزير الداخلية، بالعاصمة العثمانية، وقيل وقتها إن الدولة قامت بذلك حرصا على أهمية القدس لمكانتها الدينية، لدى المسلمين وكذلك المسيحيين واليهود، وهكذا حين بدأت الهجرات الصهيونية إلى فلسطين فى عام ١٨٨٢، كان لواء القدس يضم أكثر من ٧٥٪ من سكان فلسطين وبه ٣٢٨ قرية وكان عدد سكانها حوالى ٣٤٠ ألف نسمة، وكان لواء عكا يضم ٢٢٢ قرية وعدد سكانه ٧٧ ألف نسمة، بينما اشتمل لواء نابلس على ٤٩ ألف نسمة وبه ٢١٢ قرية .. وكان النشاط الغالب على أهالى فلسطين الزراعة، وهى المصدر الأول للدخل، فضلا عن بعض الحرف والحرفيين فى المدن الفلسطينية.. هى بلد ومجتمع بسيط مثل أى مجتمع عربى آنذاك، وسكان معظم الولايات العثمانية .. فما الذى دفع زيدان إلى أن يخصها وحدها بزيارة ورحلة عمل طويلة ..؟

كانت الأحداث تتحرك فى فلسطين بصورة تنذر بكارثة، فالهجرات اليهودية فى ازدياد والمهاجرون ليسوا مجرد مواطنين هربوا من الاضطهاد فى أوروبا ولكنهم كانوا يعتنقون الفكرة الصهيونية، التى تقوم على إنشاء وطن قومى لليهود، وكانت أفكارهم تتركز نحو فلسطين، فهى عندهم «أرض الميعاد» وقد بدأت الهجرات ذات الطابع الصهيونى فى سنة ١٨٨٢ ، ففى نفس السنة، أقيمت أول مستوطنة ذات طابع صهيونى، كانت تسمى وقتها «مستعمرة» وكان المهاجرون يدخلون إلى فلسطين بسهولة شديدة، كانت الدولة العثمانية ترحب بهم ويقدم لهم الولاة التسهيلات باعتبار أنهم سوف يستغلون الأراضى غير المنزرعة ، وفى النهاية يؤدى ذلك إلى زيادة دخل الدولة من الضرائب.. ولنتأمل بعض الأرقام. ففى سنة ١٨٤٠ كان فى فلسطين خمسة ألاف يهودى، معظمهم كانوا من الحرفيين المهرة، وكانوا يتركزون غالبا فى المدن، خاصة منها التى تحمل طابعا دينيا ومقدسا لدى اليهود مثل القدس والخليل، وفى ١٨٨٢ وصل هذا الرقم إلى ٢٤ ألفاً، أى حوالى خمسة أضعاف (١)، ومن المهم القول

(١) راجع : د. عبدالوهاب الكيالى : تاريخ فلسطين الحديث ط ١١ سنة ١٩٩٩ .

أن عدد سكان فلسطين لم يتزايد بهذه النسبة طوال هذه الفترة، وبعد ١٨٨٢ ازدادت معدلات الهجرة اليهودية وازداد عدد المستوطنات، وبدأت الاحتكاكات بين العرب الفلسطينيين سكان البلاد والوافدين الجدد، وكان معظمهم من اليهود الروس، فقد كانت جمعية أحباء صهيون تدعم هؤلاء المهاجرين ، وسرى همس بين الفلسطينيين أن رشاوى تدفع إلى المسئولين العثمانيين لاقامة المستوطنات والسماح بهجرة هذه الأعداد، وحدث الاحتكاك حول حدود تلك المستوطنات واقترابها من أراضى الفلاحين الفلسطينيين، فضلا عن أن المهاجرين الجدد، لم يكونوا فى الصورة التقليدية لليهودى العربى من حيث التقوى الأخلاقية وحسن التعامل مع العرب، وفى ٢٤ يونيه ١٨٩١ أرسل أعيان القدس برقية إلى الصدر الأعظم فى الآستانة ، عاصمة الدولة العلية، يشكون فيها من ازدياد أعداد المهاجرين اليهود ، ويطلبون وقف تلك الهجرات وعدم تملكهم الأراضى الزراعية بفلسطين، لكن البرقية لم تثمر، لم تتحرك الدولة ولم تنتبه، وظلت الهجرات فى ازدياد والمستوطنات فى اتساع، وتتحدث بعض صحف ذلك الزمان عن وقوع صدامات بين الأهالى وهؤلاء المهاجرين .

كان الموضوع برمته مطروحا على المستوى السياسى، فالمهاجرون اليهود كانوا يجدون الدعم المادي والمعنوى الكامل من أثرياء أوروبا اليهود ومن كبار ساستها، كانت المسألة اليهودية مطروحة بقوة فى أوروبا، فقد تعرض اليهود للاضطهاد وللظلم والعنصرية، وبدأ التفكير جديا فى أن يهاجروا منها، وكانت فلسطين هى المرشحة لاستقبالهم، ولذا تجد أن قيصر ألمانيا زار عاصمة الدولة العلية والتقى السلطان عبدالحميد وفاتحه فى هذا الأمر، وفى سنة ١٨٩٩ نجد يوسف ضياء الخالدى وهو مقدسى، كان من قبل رئيسا لبلدية القدس وسفير الدولة العلية في النمسا، ومن المقربين إلى السلطان، بعث برسالة إلى هرتزل وكانت بالفرنسية، وحملها «صادق كاهان» رئيس الطائفة اليهودية فى فرنسا، وجاء فى الرسالة أنه يتعاطف مع اليهود ويحمل لهم مشاعر الود والتقدير، ويعتبر الصهيونية «فكرة .. طبيعية وعادلة»(١) ويقر بالحق التاريخى لليهود فى فلسطين، لكن مصير الأمم لايتحدد ولايقوم على المفاهيم المثالية والمصطلحات المجردة أو الحقوق التاريخية. لأن فلسطين آهلة بسكانها العرب (مسلمين

(١) حول هذه الرسالة وما حولها راجع د. عادل مناع «تاريخ فلسطين فى أواخر العهد العثمانى ١٧٠٠/١٩١٨ .. قراءة جديدة الناشر: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

ومسيحيين) وأنه لامجال لتحقيق المشروع الصهيونى على أرض فلسطين، إلا إذا تم ذلك بالقوة، وليس فى مقدور اليهود مواجهة المسلمين (١) وينصح الخالدى «هرتزل» بأن يبحثوا عن مكان آخر غير فلسطين، فيرد عليه هرتزل بأن تحقيق المشروع الصهيونى لايشكل أى ضرر للدولة العثمانية، بل هو فى صالحها، ذلك أن اليهود مسالمون ولايريدون العنف وأن شراءهم للأراضى سوف يؤدى إلى تضاعف أسعارها وهذا فى النهاية لصالح الدولة ولصالح الفلاح الفلسطينى (١) ومعنى رد هيرتزل أنه لاتراجع عن فلسطين، ولا وقف للهجرات إليها. رغم أن الدولة العلية كان يمكنها أن توقفها بسهولة .

ما جرى فى الكواليس السياسية كان حكرا على كبار المسئولين فى الدولة، لكن أمر المستوطنات الصهيونية انتقل إلى الرأى العام . عبر الصحف، فقد أولت الصحف العربية، خاصة فى مصر، اهتماما كبيرا بما يجرى، سواء الصحف اليومية أو المجلات المتخصصة، ففى عدد مايو ١٨٩٤ من الهلال نشر جرجى زيدان رسالة من مطران الكنائس

(١) المرجع السابق.

الإنجليزية فى القدس حول ازدياد معدل الهجرات اليهودية إلى بيت المقدس وغيرها من أراضى فلسطين ، ثم يتصاعد معدل النشر، فتنشر المقتطف عدد إبرايل ١٩٩٨ – رسالة حول الصهيونية وفلسطين من قارئ بعث بها من فرانكفورت ثم يدخل كبار الكتاب معركة الدفاع عن فلسطين، ويدور نقاش مفتوح ومعمق حول مستقبل فلسطين فى ظل الهجرات المتزايدة وطغيان الفكرة الصهيونية على المهاجرين اليهود.. كتب محمد رشيد رضا باستفاضة فى «المنار» وكتب الأمير شكيب أرسلان وغيرهما .. ودار سجال طويل على صفحات الصحف طرفه الأول الكتاب المتخوفون على مستقبل فلسطين من تدفق المهاجرين عليها، وإصرار هؤلاء المهاجرين على أن يؤسسوا مجتمعا مغايرا تماما للمجتمع الفلسطينى وطرفه الثانى الكتاب الإسرائيليون – هكذا كانوا يلقبون أنفسهم – وكانوا من اليهود الذين يدافعون عن تلك الهجرات ويرون أنها ليست ضد مصالح الدولة العلية وليست ضد صالح فلسطين (١) كان هذا السجال بين عامى ١٨٩٧ و١٨٩٨ أى قبل بداية القرن العشرين ، وكانت الأمة فى فلسطين تتفاقم سنة بعد

(١) يوجد رصد كامل لتلك المعركة فى كتاب حلمى النمنم «المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين» رؤية للنشر.

أخرى .. وكان أهالى فلسطين يبعثون برسائل إلى الصحف المصرية، تشرح ما يجرى على الأرض ويشكون ويستغيثون، لكن الدولة العلية ، التى كانت تتولى مقاليد الحكم فى فلسطين منذ سنة ١٥١٧ كانت فى واد آخر، وكانت لديها هموم وشواغل أخرى .. لذا لم يتم الالتفات إلى شكاوى أعيان وأهالى فلسطين ، كما لم يتم التعامل بجدية مع الأفكار التى طرحها كبار الكتاب والمصلحين، خاصة وأن من بينهم من كانوا مدافعين عن الدولة مثل الأمير شكيب أرسلان ورشيد رضا .

لم يكن الاهتمام بما يجرى فى فلسطين وقفا على الكتاب والصحف العربية، فقد كانت مثار اهتمام الصحف الأوروبية، بل وجدنا أحد المستشرقين، هو الأب هنرى لامنس اليسوعى يقوم بزيارة وجولة فى فلسطين رصد فيها عدد المستعمرات الصهيونية وكافة التفاصيل عن كل مستعمرة، من حيث مصادر تمويلها والقائمين عليها، والعمل فيها ومساحتها وحجمها، وما تنتجه ومستوى محاصيلها وطبيعة سكانها، ونشرت دراسته تلك فى مجلة «المشرق» عدد نوفمبر ١٨٩٨ بعنوان «اليهود فى فلسطين ومستعمراتهم» .

بإزاء هذا كله لم يكن غريبا أن يقوم زيدان برحلته إلى فلسطين، هذه الرحلة هي من صميم عمله الصحفي، وهو في النهاية ليس مجرد كاتب ولا هو داعية أو مصلح في المقام الأول، كان صحفيا وباحثا، ولذا لامفر أمامه من أن يذهب إلى موقع الحدث، وقد كان بفلسطين، القدس ويافا وحيفا وتل أبيب وهي آنذاك مجرد قرية أسسها اليهود .. السؤال إذن لا يكون حول الرحلة ذاتها، بل يجب أن يكون حول توقيت الرحلة، فالمشكلة كانت مشتعلة منذ سنوات، والأمر المؤكد أن أصداءها وصلت إليه فعلا، خلال زيارته إلى بيروت سنة ١٩١٠، هناك كان يعيش بعض الأثرياء الفلسطينيين، وكانت المسافة مفتوحة على البحر المتوسط بين المدن الفلسطينية، تحديدا عكا ومدينة بيروت، لعله سمع في تلك الرحلة الكثير عما يجري هناك، وهذا ما حفزه إلى أن يضعها في أولوياته ولعله لم يذهب إلى فلسطين قبل ذلك لأنه كان مشغولا بإرساء دعائم «الهلال» وقد كان محررها الوحيد، فضلا عن كتبه الغزيرة التي أصدرها خلال تلك السنوات .

ففي عدد أكتوبر سنة ١٩١٣ من «الهلال» نشر دراسة عن الصهيونية بعنوان «الصهيونية .. تاريخها وأعمالها» .. أشار

إلى انتشار تلك الفكرة وما يدور حولها « كثر تحدث الناس فيها بالأعوام الأخيرة، وقد همنا أمرها على الخصوص في أثناء رحلتنا بفلسطين» .

عاد زيدان من فلسطين ليكتب عنها، وبدأ النشر في شهر أكتوبر ١٩١٣ ، وظل ينشر حتى وافته المنية فى ٢٣ يونيه ١٩١٤ ، ولانعرف هل كان ذلك كل ما لديه عن فلسطين ، أم كانت هناك أفكار ومشاهد أخرى ..؟!

سوف نلاحظ في الفصول التى نشرها، عدة أمور :

أولا : أنه حين يتحدث عن فلسطين ، يستعمل كلمة «بلادنا» وهو كان شامياً لبنانياً، وكانت فلسطين حتى ذلك الوقت جزءا من بلاد الشام ، وهذا يعنى أنه تناول قضية تعنيه وتخصه .

ثانيا : أنه حرص على جمع أكبر قدر من المعلومات، حول الجمعيات الصهيونية فى فلسطين والمواقع التى تتركز فيها، وبتعبير آخر مناطق نفوذ كل منها، حيث كانت تتوزع على عموم فلسطين وما تقوم به ، من شراء للأراضي، واستزراعها وتأسيس مجتمعات سكنية جديدة تماما وتاريخ كل جمعية ودورها في فلسطين ومن يقف خلفها فى أوروبا .

ثالثا : انتقد زيدان بشدة الحكومة العثمانية، فهى لم تقدم أى خدمات للأهالى فى فلسطين وتركتهم بلا تعليم وبلا رعاية، ثم بلا حماية، فلم تنتبه إلى ما يجرى من بيع للأراضى، ويتهم المسئولين العثمانيين فى فلسطين، بأنهم يفضلون الأجنبى، أى اليهودى الصهيونى، على الوطنى فى بيع الأراضى وتقديم التسهيلات للصهاينة لزراعتها وجعلها منتجة ووضع العراقيل أمام الوطنيين والأهالى ، مما جعل الوطنيين يؤكدون أن هناك رشاوى تدفع للمسئولين ورجال الحكومة.

رابعا : كتب آخرون قبل زيدان عما يجرى فى فلسطين، ولكن الذين كتبوا فهموا الأمر على أنها مجرد هجرات كثيفة لفلسطين من اليهود، وأن ذلك يضعف المواطنين الفلسطينيين ويهدد المجتمع، وكان الكتاب اليهود يردون بأنها مجرد هجرات لأناس مضطهدين وأنهم يعملون فى إطار الدولة العلية، وأنهم من رعاياها، وبعضهم لمس على استحياء فكرة أن تكون فلسطين وطنا لليهود، وحده جرجي زيدان الذى لاحظ ورصد أن اليهود هناك يؤسسون دولة داخل الدولة أو ما أطلق عليه «حكومة يهودية ضمن حكومة عثمانية» فقد لاحظ أن لهم مدارسهم الخاصة، ويتم تدريس كل شىء

بالعبرية، وأن لهم قضاءهم الخاص وكذلك الشرطة والبريد.. وهذا ما لم تفطن إليه الدولة العلية أو لم تتعامل معه بالجدية اللائقة .

خامسا: انتهى زيدان إلى النتيجة المأساوية، التى تعيشها فلسطين اليوم، وهى العمل على تهويد كثير من الأماكن والمدن فى فلسطين، يقول «رأينا فى يافا أكثر مدائن فلسطين صبغة يهودية ظاهرة فى أسواقها ومنازلها فتجد أسماء الصناعات أو المتاجر على الحوانيت أو المنازل فى اللغة العبرانية فضلا عن العربية والأفرنجية ، وهم يسمون غرف الفنادق بأسماء آبائهم الأولين أو مدنهم القديمة فبدلا من الاكتفاء بالنمرة للغرفة يسمونها بنيامين مثلا أو يعقوب أو أريحة أو نحو ذلك » وينتهى من هذا الوصف والرصد إلى النتيجة المرعبة «.. تغلب اليهود فى فلسطين ظاهر ظهورا واضحا فهم أصحاب الثروة ولهم أخصب المغارس وأنظف الشوارع وأفخم المنازل. والوطنيون يرون ذلك: ويشتكون والحكومة لا تحرك ساكنا لانشغالها بنفسها أو بحروبها عن النظر فى هذه الشئون .

سادسا : قدم زيدان العديد من الاقتراحات لإنقاذ فلسطين وأهلها ، مثل قوله ومطالبته «النسج على منوال أولئك

المستعمرين من حيث تعمير الأرض بالطرق العلمية وإنقاذ الفلاح من المرابى بالطرق المعقولة . إما بإنشاء النقابات الزراعية أو نحو ذلك ..» .

ولم يتم الأخذ بأى من تلك الاقتراحات، لا اقتراحاته هو ولا غيره من الكتاب والمصلحين .

سابعا : لم يكن زيدان غافلا عن سؤال المستقبل ، مستقبل فلسطين تحديدا ، إذا ظل ازدياد معدلات الهجرة اليهودية والصهيونية إليها، وقد أطلق صيحة تحذير واضحة ..» .. مالا شك فيه من مستقبل تلك البلاد أن الحال إذا ظل على ذلك واليهود عاملون على استبياع الأرضين واستعمارها، وأهلها غافلون أو متجاهلون وحكومتها ساكتة أو مشغولة، فلايمضى زمن طويل حتى تصير كلها لليهود .. ولا عبرة فى من يتولى شؤنها السياسية ولا فرق أن تكون يومئذ فى سلطة العثمانيين أو العرب أو الفرنساويين أو الانكليز .. فإن العبرة فى من يملك الأرض ويستولى على غلتها وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد الملك لصاحبه . سواء كان مسلما أو نصرانيا أو يهوديا» .

ومضت الأيام، لم يستمع أحد إلى صيحة زيدان وتحذيره أو نبوءته إن صح التوصيف .

رحل زيدان فى يونيه سنة ١٩١٤، قبل شهور من اندلاع الحرب العالمية الأولى التى لن تمر إلا وقد صدر وعد بلفور فى نوفمبر ١٩١٧، والذى تعهدت فيه بريطانيا العظمى على لسان وزير خارجيتها «لورد بلفور» بإنشاء وطن قومى لليهود على أرض فلسطين، واعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بذلك الوعد فور صدوره .

ولم يفت زيدان وهو يكتب عن الصهيونية وما تقوم به جمعياتها فى فلسطين، أن يتحدث باستفاضة عن اليهود عموما ودورهم فى التاريخ، وهو يفرق بوضوح - كما فعل رشيد رضا - بين اليهود واليهودية من جانب والصهيونية من جانب آخر.. ولايتردد فى أن يعلن أنهم اضطهدوا فى أوروبا، وكانوا موضعا للطمع وللحسد .. «كان الملوك يصادرون أموال اليهود لأوهن الأسباب ويتركونهم لايملكون طعاما ولا لباسا .. وكان الأشراف ووجهاء الدولة يعدون اضطهاد اليهود من أكبر الفضائل التى يتقربون بها إلى الكنيسة» .

ويقول أيضا «قضى اليهود فى أوروبا أجيالا فى مثل هذه الحال مضطهدين مكروهين مظلومين لكنهم ظلوا محافظين

على جامعتهم الجنسية والدينية .. وهذا غريب فى نواميس الاجتماع لأن الأمة التى تقضى مئات من السنين مشتتة مضطهدة مظلومة لا دولة تحبها ولا جند ينصرها فقد حكم عليها بالزوال.

أما اليهود فكانوا في أثناء هذه النوائب لايزدادون إلا رسوخا فى الجنسية وثباتا فى الاعتقاد . وهو سر من أسرار تاريخهم اختلف العلماء فى تعليله . وفى كل حال أنه يدل على قوة فى عنصرهم تساعدهم على احتمال المشاق واستنباط طرق الكسب ولاتوجد فى سواهم» .

حال اليهود فى العالم الإسلامى كان مختلفا، فما تعرضوا لاضطهاد، ولاقوبلوا بالعنصرية كما وقع لهم فى أوروبا «أما فى الدول الإسلامية فقد بلغوا من العز والرفعة ما لم يبلغوا إلى مثله فى أثناء هجرتهم ، وضعوا أيديهم فى أيدى المسلمين لخدمة العلم، فضلا عن السياسة والصناعة والتجارة ونالوا حظهم من تعبهم ، وهو عصرهم الذهبى ولاسيما فى الأندلس .

ويقول زيدان أيضا « .. أخذوا فى خدمة التمدن الإسلامى من صدر الإسلام وفيهم من اشتغل بترجمة العلوم القديمة

فى صدر الدولة العباسية وأقبلوا على تلقى العلوم ودروسها والتأليف فيها فى دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة ... واشتغلوا فى إنشاء المدارس والأرصاد واقتناء الكتب :

وقد احتفى الخلفاء والحكام المسلمون باليهود « .. كان الخلفاء يكرمونهم ويقدمونهم ويحترمون اعتقاداتهم وشعائرهم . حتى أن هشاما الثانى أمر بترجمة التلمود إلى العربية ليكون فى جملة ما يعلم فى مدارس المسلمين. واستخدموهم فى مصالح الدولة واستشاروهم فى مهامها ..».

* * *

٩٦ عاما مضت على رحلة زيدان إلى فلسطين ، وما كتبه عن الصهيونية واليهود، وخلال هذه السنوات صدرت كل أعماله، وتعاد طباعتها إلى اليوم فى مختلف دور النشر العربية، وصدرت عنه كذلك العديد من الدراسات والمقالات وأجريت حوله عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه بالجامعات المصرية والعربية، بل وفى بعض الجامعات الأوروبية أيضا غير أن رحلته إلى فلسطين لم تستوقف أحدا، لا من الدارسين لزيدان ولا من المشتغلين بفلسطين وبالقضية الفلسطينية .. لذا كان مهما أن نجمعها وأن ترى النور فى كتاب مستقل، ولم نتدخل فى نصها بأى شكل من الأشكال. علها تكون إضافة فكرية وثقافية وإنسانية ووطنية أيضا .

مراجع للاستزادة

(١) مسألة فلسطين، ٦ مجلدات: تاليف هنرى لورنس ترجمة: بشير السباعى - الناشر المركز القومى للترجمة.

(٢) الايديولوجية الصهيونية: جزءين، د. عبدالوهاب المسيرى.
الناشر: سلسلة عالم المعرفة.

(٣) تاريخ فلسطين الحديث. د. عبدالوهاب الكيالى.
الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٤) المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين. حلمى النمنم. دار رؤية للنشر، سنة ٢٠٠٧.

فلسطين
تاريخها وآثارها
وسائر أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية
من رحلة لصاحب الهلال

أولا - فذلكة تاريخية

تشتمل فلسطين على وادى الأردن وما يليه نحو الغرب إلى شواطئ البحر المتوسط . وأشهر مدنها بيت القدس والخليل (حبرون) ونابلس ويافا وغزة وغيرها . وقد اختلفت حدودها باختلاف الدول مما لا محل له هنا. وهى من أقدم ممالك التمدن الشرقى القديم . وقد تقلبت على أطوار تاريخية مختلفة واشتركت فى كثير من الأحوال السياسية التى انتابت مصر وفينيقية ، ويقسم تاريخها إلى أعصر تبدأ قبل التاريخ وتنتهى بدخولها فى سيادة العثمانيين ولا تزال.

١ - أحوالها قبل التاريخ

يؤخذ من بعض آثارها البنائية أنها قضت بضعة آلاف سنة فى أثناء العصر الحجرى. ومن آثار هذا العصر أطلال قديمة على مقربة من بيت المقدس شمالا تعرف بقبور بنى إسرائيل. ومن أمثالها كثير في بقايا فلسطين القديمة.

وأما سكان فلسطين القدماء فأقدم من ذكرهم التاريخ الحويون والفرزيون واليبوسيون والعمالقة والمديانيون والاميميون والزوزميون والرفائيون وغيرهم ممن ذكرتهم

التوراة. وإنما نعرف من أحوالهم ما جاء عرضا فى بعض النصوص إلا العمالقة فقد بينا ماهيتهم فى كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام (صفحة ٣٨ ج١).

ولما جاء الإسرائيليون فلسطين فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وجدوا فيها أناسا طوال القامات فى جوار الخليل (حبرون) سموهم الرفائيين، ومعهم الحثيون وهم أمة ضخمة كان لها شأن عظيم فى ذلك العهد حاربها الفراعنة وتغلبوا عليها. وقد عثر النقابون على آثارها فى سوريا وآسيا الصغرى. وجاء فى التوراة أن العبرانيين طاردوا هذه الأمم ولم يبق منهم إلا بقية فى غزة وأشدود وغات.

وبالجملة فالأمم التى عمرت فلسطين قبل التاريخ قلما نعرف شيئا عن أصولها ولكن أكثرها من الساميين بينهم قبائل من العرب نزحوا إليها من أقدم أزمنة التاريخ. ولعل بعضهم جاءها من عهد حمورابى فمن بعده إلى الأنباط قبيل التاريخ المسيحى. والمظنون أن الساميين القدماء تغلبوا على الفلسطينيين الأصليين بأسلحة من البرنز كانوا قد توصلوا إلى استخدامها وكان الفلسطينيون لا يعرفون غير الأدوات الحجرية فغلبوهم على ما فى أيديهم. ولم يبق إلى زمن موسى غير الرفائيين.

ويظهر من تدبر أحوال فلسطين القديمة وتفحص آثارها أنه حدثت فيها نهضة عمرانية قبل موسى ببضعة قرون أى نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إذ عثروا على آثار من بقايا ذلك العصر بينها أدوات خزفية ليست من الآثار الوطنية. وكان الباحثون فى شك من أمرها. ثم تبين لهم أنها تشبه أدوات عثروا عليها مؤخرا فى أنقاض جزائر بحر إيجة ولا سيما كريد. فاستدلوا بذلك وبغيره على نزول الكريديين بلاد فلسطين نحو القرن العشرين قبل الميلاد وأنهم نقلوا تمدنهم إليها.

وكان الاعتقاد الشائع أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا أحرف الهجاء كما بينا ذلك فى الهلال غير مرة. لكن الاكتشافات الأخيرة فى كريد وضعت شكا فى ذلك لأنهم وقفوا هناك على نقوش بقلم كالقلم الفينيقى أقدم مما وقفوا عليه بفينيقية بعدة قرون.

وعلى كل حال فالراجح أن التمدن الفلسطينى القديم جاءها من جزائر اليونان مع النازحين إليها من أهلها - ومازال اليونان ينزحون من جزائرهم إلى شواطىء البحر المتوسط من أقدم أزمنة التاريخ حتى الآن. وإذا كانوا قد جاءوها فاتحين فهو أقدم فتح غربى فى بلاد الشرق.

٢ - فلسطين في سلطة العبرانيين

أما تاريخ فلسطين بعد التاريخ فأقدم ما عرف منه علاقاتها مع وادى النيل بالتجارة والسياسة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وعلى الآثار المصرية نقوش تؤيد ذلك بينها أسير فلسطيني عثروا على صورته منقوشة في هيكل رعمسيس الثالث بمدينة أبو.

ثم جاء العبرانيون في زمن موسى والفلسطينيون قد أضعفهم الترف وأخذت منهم حضارة كريد كل مأخذ وآن زوالهم. فغلبهم العبرانيون واستولوا على بلادهم وأنشأوا فيها دولة اشتهر من ملوكها داود وسليمان في القرن الحادى عشر قبل الميلاد. ولكل منهما آثار في بيت المقدس سيأتي الكلام عليها. ثم انقسمت مملكتهم إلى ممالك أشهرها يهودا في أوائل القرن العاشر ولكل منها تاريخ لا محل له هنا. وعاصمتهم الكبرى أورشليم أو القدس أو بيت المقدس.

وللعبرانيين أو اليهود تأثير خالد في أحوال العالم قديما وحديثا. نعنى ما خلفوه من الشرائع والتقاليد. وهي أساس أشهر أديان العالم حتى الآن. وفي أيامهم شاع استعمال الحديد في فلسطين. وظهرت الأحرف الهجائية وانتشرت في

العالم المتمدن على أيدى جيرانهم الفينيقيين. وزها الأدب في زمن داود وسليمان. وكان هذان الملكان أولهما شاعر والثانى مؤلف. فإن مزامير داود من أحسن الشعر العبرانى. وكتاب الأمثال من أفضل كتب الأدب والحكمة غير ما لسليمان من الأقوال الشعرية في نشيد الأناشيد والجامعة كما هو مشهور. واشتهر غيرهما فى الحكمة والأدب حوالى ذلك العصر ذكروا منهم عيثان وهيمان وكلكول ودردا، وارتقت هندسة البناء في أيام العبرانيين وأحسن مثال لذلك هيكل سليمان. وقد احتفروا قناة يحمل فيها الماء من عين العذراء إلى بركة سلوان. وهناك كثير من ثمار هندسة البناء عندهم. لكنهم لم يتقدموا فى الصنائع الأخرى، فصناعة الخزف مازالت كما نقلها الكريديون تماما.

وكان سليمان ذا همة ومطامع فأحب الاقتداء بالفينيقيين فى التجارة والاستعمار. ولم يستطع مباراتهم فى البحر المتوسط فوجه عنايته إلى البحر الأحمر فأنشأ فيه أسطولا حمل إليه الذهب من أوفير وغيرها وجاءت إليه منها ملكة سبأ.

٣ - من السبى إلى ظهور الإسلام

ولما انغمس العبرانيون فى الترف وتبسطوا فى الحضارة جاءهم الأشوريون وغلبوهم على بلادهم وحملوهم إلى بابل فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد. وظلوا فى الأسر هناك نحو سبعين سنة تغيرت فى أثنائها أحوالهم ونشأ منهم جيل جديد يختلف عن الأجيال السالفة فتغير لسانهم وتنوعت آدابهم. وأخذوا بعد رجوعهم إلى بلادهم يلمون شعثهم ويدبرون شئونهم فأصلحوا أورشليم، وضبط لهم عزرا الكاهن كتب الشريعة كما وصلت إلينا، ولم يمض زمن حتى جاءهم الإسكندر المكدونى فسلموا إليه سنة ٣٣٢ ق.م وأصبحوا من ذلك الحين يخضعون لمن تغلب على سوريا أو فلسطين.

فدخلوا سنة ٣٢٠ ق.م فى سلطة بطليموس سوتر صاحب مصر. ثم استولى عليهم انتغيونس صاحب الشام. وقام النزاع بين سوريا ومصر على فلسطين وانتهى بعد مائة سنة. وفى سنة ١٧٥ق.م عزم انطيوخوس ابيفانس على محو ديانة اليهود. وأن يعوض عنها بآداب اليونان. فتصدى له المكابيون وحاربوه وانتهى أمرهم معه سنة ١٤٢ ق. م باستقلال مملكة يهودا تحت سلطتهم الدينية يتولاها كاهنهم الأعظم. ومازالت

كذلك إلى سنة ٦٣ ق. م إذ حمل عليها بومبيوس الرومانى وفتحها، ثم تمكن هيرودوس بمساعدة الرومان من الاستيلاء على أورشليم. ونصب نفسه ملكا عليها سنة ٣٧ ق.م تحت رعايتهم.

وتوفى هيرودوس سنة ٤ ق.م فتنازع السلطة جماعة من أهله فاغتنم الرومان تنازعهم وأيدوا سلطانهم فيها فخضع اليهود مرغمين، لكنهم مالبثوا أن عادوا إلى الثورة فغضب الرومان وحاصروهم فى أورشليم على زمن طيقس حصارا اشتهر فى التاريخ. وثبت اليهود فى حصارهم هذا ثباتا بيناه فى الهلال (صفحة ١٣٦ سنة ٢٠). ولم ينفعهم الثبات فغلبهم الرومان وهدموا بلدهم وتشتت شمل اليهود من ذلك الحين. وخضعت أورشليم للرومان خضوعا تاما ومازالت فى سلطتهم حتى ظهر الإسلام فى أوائل القرن السابع للميلاد.

واصطبغت فلسطين فى قرونها الأخيرة قبل الإسلام بالصبغة الرومانية والآداب اليونانية. وبذل الرومانيون جهدهم فى طمس آداب اليهود وشريعتهم. وهدم هدريان هيكل سليمان وبنى على أنقاضه هيكلا باسم جوبتير. ويقال إنه بنى هيكلا على اسم الزهرة. وتقلبت على الهيكل أحوال أخرى

سيأتى ذكرها فى مكانه. وإنما نريد الإشارة إلى رغبة الرومان فى اضطهاد اليهود وتذليلهم حتى أخرجوهم أخيرا من مدينتهم كما رأيت فنزحوا إلى طبرية وأقاموا فيها ودونوا هناك كثيرا من آدابهم وأخبارهم وأحكامهم غير ما كانوا دونوه فى أورشليم.

وفى فلسطين كثير من الآثار الرومانية كالطرق الحجرية وأسماء بعض البلاد مثل نابلس وبانياس وسفسطية وطبرية وغيرها. ناهيك باللغة اليونانية فإنها شاعت شيوعا عاما فى أكثر الطبقات. وانتشرت الصناعة اليونانية وخصوصا الفسيفساء فى أكثر الأبنية بالمدن والقرى.

وفى أثناء ذلك ظهرت النصرانية وتنصر إمبراطور القسطنطينية وأخذ المتنصرون يحجون من أوروبا إلى أورشليم وفى مقدمتهم الإمبراطورة هيلانة. وهى التى اكتشفت قبر المسيح وعينت مكانه سنة ٣٢٦م وأقدم من كتب خبر ذلك رحالة مجهول الاسم جاء من بوردو سنة ٣٣٣م ووصف ما شاهده فى بيت المقدس من الآثار. ولما انقسمت المملكة الرومانية إلى قسميها الشرقى والغربى سنة ٣٩٤م دخلت فلسطين فى القسم الشرقى وتحولت صبغتها اليهودية

إلى صبغة مسيحية وتكاثرت فيها الكنائس والأديار ولا سيما في زمن جستنيان نصير النصرانية ومحيي معالمها. ولم يحدث في أورشليم في أثناء ذلك ما يكدر الأهلين إلا حمل كسرى أنو شروان على فلسطين سنة ٦١٦ ثم عاد عنها ومازالت في حوزة الروم حتى فتحها المسلمون.

فلسطين بعد الإسلام

استولى المسلمون على فلسطين في صدر الإسلام. وقد دخلت أورشليم أو بيت المقدس في حوزتهم صلحا، ويختلف استيلاؤهم عليها عن سائر بلاد سوريا وفلسطين أن أهلها لم يرضوا بتسليمها إلا بوجود عمر بن الخطاب.، فجاء الإمام عمر بنفسه من المدينة إلى أورشليم وعقد الصلح على يده وأصبحت أورشليم في حوزة المسلمين من ذلك الحين.

ولما استولى المسلمون على فلسطين تنفس اليهود الصعداء وعادوا إلى الاطمئنان وكانوا عونا للعرب في ذلك الفتح لأنهم كانوا ناقمين على الروم. لكنهم قاسوا بعض الاضطهاد من بعض الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء.

وتوالى على بيت المقدس ما توالى على غيره من بلاد الشام في حوزة المسلمين وظلت كنيسة القبر المقدس في أيدي

النصارى كما كانت قبلا. لكن المسلمين استخدموا هيكل سليمان فبنوا في وسطه قبة عظيمة عرفت بقبة الصخرة. بناها أولا عبد الملك بن مروان ثم جددها غيره ولا تزال باقية إلى الآن. وبنوا في جانب آخر من الهيكل مسجدا سموه المسجد الأقصى وسنعود إلى وصفهما.

وأهم ما حدث هناك بعد الإسلام «الحروب الصليبية» وهي عبارة عن اتحاد ملوك أوروبا وأمرائها في الأجيال الوسطى وحملهم على الشرق لتخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين، فاجتمعت كلمتهم على هذا العمل رغم ما كان بينهم من التنازع والتخاصم. كما اتحدت كلمة العرب الجاهلية في نصرة الإسلام بعد أن كانوا قبائل متفرقة. لكن الأفرنج لم يطل نجاحهم ولا ثبتت قدمهم لأسباب كثيرة من أهمها أنهم لم يخلصوا في اتحادهم ولا كانت لهم أخلاق أولئك العرب. فتح الأفرنج بيت المقدس وأقاموا فيه نحو قرن حتى أخرجهم منه صلاح الدين سنة ١١٨٧م ولم يتم خروجهم من فلسطين كلها إلا سنة ١٢٤٨م وقد خلفوا فيها كثيرا من الآثار البنائية والآداب اللاتينية ولا تزال آثار ذلك ظاهرة هناك حتى الآن.

وعادت فلسطين بعد خروج الصليبيين إلى الدولة الأيوبية ومن خلفها من السلاطين المماليك بمصر. ومازالت فى حوزتهم حتى فتحها العثمانيون سنة ١٥١٦م على يد السلطان سليم الفاتح وأصبحت من ذلك الحين ولاية عثمانية ولا تزال.

على أنها قاست فى أثناء سيطرة العثمانيين كلها أو بعضها منازعات بسبب بعض رجال المطامع طلاب السيادة مثل فخر الدين المعنى وعلى بك الكبير وأحمد باشا الجزار والشيخ ضاهر العمر ونابليون الأول وإبراهيم باشا ابن محمد على وغيرهم مما لا محل له هنا. وآخر ما أصابها من الطوارئ الاجتماعية والاقتصادية قدوم الإرساليات الدينية النصرانية لإنشاء المدارس ونشر التمدن الحديث. ثم عود اليهود إلى استعمارها كما سنبينه فى مكانه.

ثانيا - آثارها

أكثر بلاد فلسطين آثارا القدس وأكثر آثارها دينية. ولها أهمية كبرى لأنها حج أرباب الأديان الإلهية الكبرى من أقصى العالم. فنبدأ بها ونقدم الكلام بفذلكة فى إقليمها وموقعها.

القـــدس - إقليمها

هى أشهر مدن العالم لقدم عهدها ودخولها فى التاريخ المقدس وعلاقتها بأديان الأمم المتمدنة. وهى أورشليم التوراة وتدعى أيضا بيت المقدس والبيت المقدس. ولها تاريخ طويل جاء ملخصه فى كلامنا عن تاريخ فلسطين فى الهلال الماضى.

وكنا قبل شخوصنا إليها ونحن فى يافا نتوقع أن نلقاها حارة الإقليم قياسا على ما نعرفه من المدائن السورية وهو الغالب فى مدن السواحل وإنما جذبنا إليها ما حوته من الآثار المهمة. فركبنا إليها القطار الحديدى من يافا ولم نكد نتوسط الطريق حتى رأينا القطار يجرى صعودا فى جبال كثيرة الشبه بجبال لبنان، وقد هب النسيم عليلا منعشا كائنا بين عالية وبحمدون. وشكل الجبال فى هذا الطريق كثير الشبه بما فى لبنان، وفيها الفاكهة من العنب والتين والخوخ وسائر الأثمار، وإن كانت فى حاجة إلى العناية لاستثمارها مما سنعود إليه فى كلامنا عن الحالة الاقتصادية.

أشرفنا على القدس فإذا هى واقعة على مرتفعات جبلية حولها أودية شهيرة فى التاريخ. وتحيط بالأودية جبال أسماؤها على ألسنة الأطفال فى المدارس لكثرة ورودها فى

التوراة. فاستلفت انتباهنا أولا لطافة نسيمها وجفاف إقليمها. ولا عجب فإنها مرتفعة عن سطح البحر مثل ارتفاع عالية فى لبنان. فيرى المصريون فيها مصيفا جميلا لا يخافون فيه حرا. وإنما يفضلها لبنان بالمياه المتدفقة من ينابيعه الباردة. وأما ماء القدس فإنه مجموع فى الصهاريج من مياه المطر. والينابيع نادرة فيها.

والمدينة على مرتفع أصله بضعة تلال لكنه الآن كالتل الواحد مكسو بالأبنية . ويحيط بالمدينة من أكثر جهاتها الأودية إلا من الشمال حيث امتدت الأبنية الحديثة . فيليها من الجنوب والغرب وادى ابن هنوم ويسمى وادى الرباب. وفى الشرق وادى قدرون أو وادى ستى مريم ووادى يهوشافاط، وأشهر الجبال المحيطة بتلك الأودية جبل الزيتون فى الشرق يفصله عن القدس وادى قدرون ووادى ستى مريم.

والقدس القديمة تشبه المربع المنحرف محاطة بسور من بناء السلطان سليمان القانونى فى أواسط القرن العاشر للميلاد. ارتفاعه ٣٨ قدما ومحيطه نحو ميلين ونصف. له ثمانية أبواب بعضها مقفل منذ أجيال . وشوارع المدينة

ضيقة مرصفة بالحجارة على طريقة الترصيف في ذلك العصر. وهي مقسومة إلى أحياء باعتبار الطوائف والعناصر. ولكل منزل صهريج تجمع فيه مياه الأمطار. وقد أخذ أهل هذا العصر بالبناء خارج السور. وأكثر أبنيتهم في الشمال وما يليه بينها قصور وحدائق على النمط الحديث. وأهم أبنيتها الأديار والمعابد والمزارات حتى يصح أن يقال إنها «معبد كبير».

سكانها عددهم نحو ٩٠٠٠٠ نفس منهم ٦٠٠٠٠ إسرائيليون ونحو ١٢٠٠٠ من المسلمين و١٨٠٠٠ من المسيحيين بوجه التقريب. يقسمون إلى أمم شتى وسنعود إلى ذلك في كلامنا عن الحالة الاجتماعية والعلمية.

آثارها

وفي القدس آثار كثيرة حتى تكاد لا تجد مكانا فيها ليس له ذكر تاريخي في التوراة أو غيرها. وكثير من روايات القوم عن تلك الآثار يحتاج إلى تحقيق لا محل له هنا. وأشهر الآثار وأهمها كنيسة القيامة حج المسيحيين والحرم الشريف حج المسلمين فنقدم الكلام فيهما:

كنيسة القيامة

هى بناء قديم ضخم واقع فى نحو منتصف المدينة القديمة مع ميل قليل نحو الشمال والغرب. وقد اشتهرت هذه الكنيسة وزادت أهميتها لوجود قبر المسيح فيها ويسمى القبر المقدس. والعلماء مختلفون فى هل هو قبر المسيح حقيقة ؟ أى هل هذا هو المكان الذى قبر فيه المسيح بعد صلبه كما جاء فى الأناجيل؟ وأما العامة فإنهم على ما تسلموه من آبائهم بلا بحث. وقد تسلل هذا الاعتقاد من زمن الملكة هيلانة والدة الملك قسطنطين ؛ لأنها جاءت إلى القدس وبحثت عن قبر المسيح فوجدت الصليب وبنت كنيستين هناك سنة ٣٣٦م وتوالى على هذا القبر وما بنى حوله من الكنائس والمزارات تاريخ طويل.

فلما أطلقت الأفكار والأقلام فى المدنية الحديثة كانت مسألة القبر من جملة ما طرح على بساط البحث. ولا يزال الاختلاف سائدا. وحجة المنكرين أنه القبر الحقيقى أن المسيح دفن خارج أورشليم وكانت قديما أكبر مما هى الآن كثيرا. والقبر الآن فى أواسطها فكيف يكون هو نفسه؟ وأخذت طائفة منهم يبحثون عن مكان القبر الحقيقى فذهبوا مذاهب مختلفة،

وأصحاب القول بأنه القبر الحقيقي يوالون البحث في هذا السبيل أيضا. ولا يتسع المجال لتحقيق هذا الأمر هنا فنكتفي بوصف القبر وما يحيط به.

كنيسة القيامة بناء كبير مؤلف من القبر المقدس وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها. بعضها للروم الأرثوذكس والبعض الآخر للاتين أو الأرمن أو القبط أو غيرهم. وقد رسمنا أجزاء القيامة رسما هندسيا لتتضح نسبتها بعضها إلى بعض (صفحة ١٢٦) ونبدأ بالباب الخارجي من جهة الجنوب.

أول شيء يراه المقبل على هذه الكنيسة واجهتها الجنوبية، وبين يديها ساحة مرخمة ببلاط ضخم يظهر من بقاياها أنها كانت كالرواق العريض القائم على الأعمدة. وهي مربعة الشكل مستطيلة. ضلعها الشمالي واجهة الكنيسة وهو يقابل القادم إليها. والجنوبي يلي الطريق عليه بقايا أعمدة من رخام. وضلعها الشرقي إلى يمين المقبل وفيه دير إبراهيم ومصلى الأرمن وكنيسة القديس مخائيل للقبط، وضلعها الغربي من كنائس القديس يعقوب ومريم المجدلية والأربعين شهيدا غيرها.

وأما الواجهة ففيها باب يدخل منه إلى الكنيسة عليه نقوش رومانية وعربية . وبعد دخول الباب إلى اليسار مقعد يجلس عليه خفراء مسلمون من قبل الحكومة . وأول شيء يقابل الداخل حجر مربع مستطيل طوله سبعة أقدام وعرضه قدمان، لونه أصفر محمر يسمى حجر الدهن أو المسح . يقال إن جسد المسيح وضع عليه وحنطه نيقوديموس . وعلى مسافة ٣٣ قدما نحو الغرب حجر آخر يقال إن النساء وقفن عنده وقت التحنيط . وقد تداول امتلاك حجر المسح أو الدهن طوائف مختلفة من النصارى. فكان في القرن الخامس عشر خاصا بالأقباط . وفي القرن السادس عشر صار إلى الجورجيين (الأرمن) ودفع اللاتين ٥٠٠٠ غرش لنيل حق إيقاد المصابيح فوقه . ثم صار إلى اليونان لكن الطوائف الأخرى لها حق إيقاد الشموع أو المصابيح فوقه . فتجد هناك عدة مصابيح للأرمن واللاتين والروم والأقباط.

القبر المقدس

ويمشي الزائر نحو اليسار بضع عشرة خطوة إلى بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقه قبة قطره ٦٥ قدما

ويحتوى على القبر المقدس. والبناء المذكور مبنى من قديم الزمان لكن الموجود الآن منه تم سنة ١٨١٠ وهو قائم على ١٨ عمودا متصلة من أعلاها بأقواس فى أتقن ما يكون. واجهته التي فيها الباب متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الأرثوذكس نصف الدنيا.

وإذا ما تأملت تلك الواجهات أدهشك كثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم كالقناديل والمصابيح الذهبية والشموع الضخمة والرايات المقدسة والصور عليها الحلى من الذهب والفضة تملأ الواجهة إلى أعلاها. وفى أسفل تلك الواجهة مدخل ذلك البناء إلى الضريح. يستطرق إلى فسحة كالغرفة طولها ٢٦ قدما وعرضها ١٧ قدما مثمنة الشكل جدرانها من الرخام. تم بناؤها سنة ١٨١٠ وهى تنتهى إلى حجرة تسمى مصلى الملائكة طولها ١١ قدما وعرضها ١٠ أقدام مصفحة بالرخام. وقد تعلق فى سقفها قناديل من ذهب عددها ١٥ قنديلا خمسة منها لليونان وخمسة للاتين وأربعة للأرمن وواحد للأقباط. وفى وسط هذا المصلى حجر يعتقدون أنه الحجر الذى دحرجه الملاك عن القبر.

ويدخل من هذا المصلى فى باب ضيق إلى حجرة الضريح وفيها القبر نفسه ، طوله ستة أقدام ونصف وعرضه نحو أربعة أقدام ، سطحه من رخام جميل. وسقف الضريح قائم على أعمدة ويتدلى منه ٤٣ قنديلا من الذهب منها ٤ للأقباط والباقى مقسوم بين الطوائف الأخرى على السواء. وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح كل منها لطائفة من الطوائف المشتركة فى تكريم هذا المكان. وفى هذه الحجرة تتلى الصلاة كل يوم وهو أقدس مكان فى كنيسة القيامة.

وفى سفر لوقا أن المسيح دفن فى قبر من حجر ويقال إن هيلانة لما بحثت عن قبر المسيح وجدت هناك كهفا بنت فوقه مصلى. ولما ملك الصليبيون بيت المقدس كان شكل المكان مستديرا وفيه حجرتان الخارجية منهما مصلى الملائكة والداخلية فيها القبر. ويؤخذ من التقاليد المتوارثة أن ذلك البناء تهدم سنة ١٥٥٥ حتى انكشف القبر ووجدوا فيه قطعا من خشب الصليب. فأعيد البناء سنة ١٧١٩ ثم أصابه حريق سنة ١٨٠٨ فأعيد بناؤه سنة ١٨١٠.

وحول البناء المشار إليه خلاء مرصف بالرخام تحيط به أبنية الكنيسة. ووراءه الأبواب والدهاليز المؤدية إلى سائر

أجـزائهـا. ولما كـان القـبـر هـو أقـدس مكان هناك اتفـقت الطوائف المسيحية على الاجتزاء من قـربه أو الحصول على مكان يمكن أبناء كل طائفة من الوقوف فيه عند الاحـتـفال بانبـثـاق النور فى يوم سـبت النور . والنور فى ذلك اليـوم يخـرج للناس من كـوة فى جـدار القـبـر. فـيقـتـبـسـون منـه بشـمـوع أعـدوها فى أيديهم . فـإذا أضـيـئت تبـركـوا بلهـيبـها فـيدنونه من وجـوههم أو ثيـابهم على نسـبـة إيمانهم وصـحة اعتقادهم . والروسـيون أكثر الحـجاج إيمانا فـيتقدم أحـدهم وبيـده شـمعة أو شـمعات يدنيها من النور الخارج من الكوة فإذا أضـاءت أدار لهـيبـها حـول وجـهه وأدخـلـها تحـت ثيابه وهـو لا يخشى احتراقا ، وللباحثين آراء مختلفة فى كـيفـية تكون ذلك النور . أمـا المؤمنـون فيـعـتقـدون أنه يخرج من القبر المقدس . وليـس من شـأننا الخوض فى هذا الموضوع.

الاختصام والتنازع

والخلاء المذكور حول القبر اقتسمته الطوائف النصرانية بينها . منه مصلى محدود بالدرابزين فى قفا القبر أى فى الغرب هو خاص بالأقباط من القرن السادس عشر. فالأقباط

يقفون في يوم سبت النور هناك. وقس على ذلك مواقف سائر الطوائف وهم الروم الأرثوذكس والأرمن والسريان لكل منها بقعة مخصصة لها. ولا يسمح لطائفة أن تتعدى حدودها. ومن تجاسر على ذلك منعه جاره المعتدي عليه. وكثيرا ما يحتدم الخصام ويتضاربون بالعصى والخناجر في هذا السبيل. وقد يتضاربون عند كنس تلك المواقف أو تنظيفها. فلا يؤذن للطائفة أن تكنس غير الجزء المختص بها. فإذا مست المكنسة جزءا من موقف الجار نبهه هذا. فإذا لم يذعن منعه بالقوة. كأن تنظيف المكان يجعل للمنظف حقا في تملكه - من قبيل وضع اليد!

وقد سمعنا حكايات من هذا القبيل ينكرها السامع لأول وهلة لغرابتها ولكن التواتر يؤيدها. وأغرب من ذلك تنازعهم على ما هو غير مقسوم من أجزاء البناء كالجدران والأعمدة والسقوف فهذه لا تخص طائفة دون أخرى، فإذا وقعت أيقونة كانت معلقة على أحد الجدران تخاصموا على من يعلقها في مكانها. وإذا تهدم جزء اختصموا في من يرممه من الطوائف. إذ لا يجسر أحد على أن يفعل ذلك وحده، وكثيرا ما يبقى ذلك النقص أشهرا أو أعواما حتى تعقد المجالس المشتركة أو

تتداخل الحكومات في الإقرار على إصلاحه. وقد وقع خصام من هذا النوع فى أواسط القرن الماضى فكان من جملة الذرائع التى جرت الدول النصرانية إلى الاختصام فى حرب القرم.

وقد شاهدنا فى مغارة بيت لحم شباكا واقعاً فى كنيسة لكل طائفة من الطوائف جزء منها فيه قد تراكم نسيج العنكبوت على زجاجه وكساه الغبار. ورأينا أرض الكنيسة نظيفة فسألنا عن سبب بقاء ذلك الشباك مهملا. فأجابوا لأنه لا يخص طائفة دون أخرى فلا تتجاسر واحدة منهن على تنظيفه دون أن تتعرض لغضب جارتها. وقد يشتد الخصام حتى ينجلى عن الجرجى والقتلى، ولذلك فإن الحكومة أقامت الخفر من الجند يبيتون هناك منعا لهذه الأخطار.

وقس على ذلك تنازعهم فى سائر أماكن المزارات المشتركة. وقد باحثنا بعض العقلاء فى سبب ذلك النزاع ولماذا لا تتفق الطوائف المشتركة فى مزار على اقتسامه بخريطة تعين فيها حدود كل طائفة. ثم لا يتنازعون عند كنسه أو تنظيفه إذ يكون حق كل منهن مبينا فى الخريطة. فاستصوبوا ذلك لكنهم قالوا إن الطوائف لا تقبل به. ويلوح

لنا أن التى لا تقبل إنما هى الطوائف أصحاب الحصص الصغرى فى تلك الأماكن ولا تزال ترجو أن تزيد حصتها بوضع اليد أو المغالطة. مما لا يليق البقاء عليه فى هذا العصر. وقد آن لعقلاء هذه الطوائف أن يضعوا حدا لهذا الأمر فإنه سخرية يضحك منها النصارى أنفسهم فكيف سواهم؟

مزارات أخرى

وفى كنيسة القيامة كنائس ومصليات وتذكارات عديدة يضيق المكان عن شرحها. أهمها كنيسة الروم الأرثوذكس مدخلها يقابل واجهة قبة القبر المقدس فيها كثير من زخارف التحف فى وسطها مكان يعتقدون أنه مركز العالم أو نصف الدنيا. وهو اعتقاد قديم وتنوقل بالتقليد. وفيها عرشان كبيران يجلس على أحدهما البطريرك الأنطاكى وعلى الآخر البطريرك الأورشليمى.

وهناك حجرة للاتين فيها أوان بينها تحف كنائسية قديمة أورونا منها سيف جودفرا دى بولون صاحب بيت المقدس فى زمن الصليبيين ومهمازه وصليبه. طول السيف قدمان و٨ قراريط. غير المصليات للطوائف الأخرى وأماكن أثرية أهمها

الجلجثة وبنوا فيها كنيسة ترتفع عن أرض كنيسة الروم ١٤ قدماً ويعتقدون أن هناك جبل الجلجثة الذى صلب عليه المسيح قبل دفنه.

ثانيا - آثارها

بدأنا بذكر آثار القدس في الهلال الماضي فوصفنا كنيسة القيامة. ونحن واصفون الحرم الشريف بما يسعه المقام من التفصيل .

الحرم الشريف:

هو أثر تاريخي هام له تاريخ طويل يجدر بنا التنبيه إليه ووصف حدوده تمهيدا لذكر ماحواه من الآثار .

يراد بالحرم الشريف فى بيت المقدس بقعة من الأرض تشغل قسماً كبيرا من هذه المدينة ربما بلغت سدس مساحتها كلها . شكله يشبه المربع المستطيل تتألف منه الزاوية الشرقية الجنوبية من المدينة . طوله من الشمال الى الجنوب نحو ٥٣٠ متراً وعرضه ٣٤٥ مترا .

يحده من الشرق سور المدينة ووراءه وادى قدرون . ومن الجنوب سورها أيضا . ومن الشمال والغرب أبنية أخرى . وفى ساحة الحرم كثير من الابنية الأثرية أهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى .

والحرم الشريف - أعنى الساحة المتقدم ذكرها - مابرحت مكانا مقدساً من أقدم أزمنة التاريخ فيها نصب اليهود خيمة الشهادة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وفيها بنى داود مذبحا وأصعد عليه المحرقات للرب فى القرن العاشر قبل الميلاد . وكانت يومئذ بيدرا لرجل يبوسى اسمه ارونا ابتاعه داود منه بخمسين مثقالا من الذهب وبنى المذبح عليه .

(راجع صموئيل الثانى ص ٢٤ : ء ١٨ - ٢٥) .

هيكل سليمان :

ولما صار الملك الى ابنه سليمان وأراد بناء هيكله الشهير اختار له هذه البقعة وبناه فيها وهو المعروف بهيكل سليمان . وقد جاء خبر بنائه وتفصيله فى أماكن كثيرة من التوراة . ففى صموئيل الثانى (ص٢) «وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب وبيت لملكه. وأحصى سليمان سبعين الف رجل حمالين وثمانين الف رجل يقطعون الحجارة فى الجبل. وثلاثة آلاف وست مائة رجل يناظرون عليهم. وارسل الى حيرام ملك صور قائلا : كما فعلت مع داود أبي وارسلت اليه ارزا ليبنى بيتاً يسكن فيه تفعل معى فإنى أبنى بيتا لاسم الرب الهى ...» .

ثم جاء على تفصيل البناء واجزائه وما دخل فى ذلك من الذهب والفضة والنحاس والحديد والارجوان والقرمز والسمنجونى . ومن الارز والسرو والصندل واستقدام النقاشين وغيرهم الى أن قال «وشرع سليمان فى بناء بيت الرب في اورشليم .. فى اليوم الثانى .. وكانت الأسس التى وضعها ستين ذراعا طولا وعشرين ذراعا عرضا والرواق من امام عشرين ذراعا طولا على محاذاة عرض البيت ومائة وعشرين سمكا . وغشاه من داخل بذهب نقى والبيت العظيم البسه خشب سرو . ثم البسه ذهبا خالصا وجعل عليه نخيلا وسلاسل ورصع البيت بحجارة كريمة للزينة . وكان الذهب من ذهب فروائيم . والبس البيت روافده واعتابه وجدرانه ومصاريعه ذهبا ونقش كروبيم على الجدران . وصنع بيت قدس الاقداس على محاذاة عرض البيت عشرين ذراعا طولا وعشرين ذراعا عرضا والبسه ذهبا خالصا ست مائة قنطار . وكان وزن المسامير خمسين مثقالا من ذهب . والبس العلالى ذهبا وصنع في بيت قدس الاقداس كروبين صنعة ممثلين وغشاهما بذهب» ثم ذكر اجزاء البناء وفصل ما دخل فيه من الزينة وذكر ايضا البناء

الذى شاده لنفسه مطولا فى التوراة المتداولة بين أيدى الناس فلا حاجة إلى ذكره .

ماذا تقلب على الهيكل :

وقد مر على هذا الهيكل أحوال مختلفة . نهبه شيشاق سنة ٩٧١ ق م ورممه يواش سنة ٨٥٦ ق م ودنسه أحاز سنة ٧٤٠ ق.م ثم رممه حزقيا سنة ٧٢٦ . لكنه مازال قائما حتى سطا الاشوريون على بيت المقدس بقيادة نبوخذ نصر فهدموه وساقوا اليهود إلى بابل وهو السبى المشهور فى القرن السادس قبل الميلاد . فلما عادوا من السبى أخذوا فى ترميمه أو تجديده . ثم سطا عليهم انطيوخوس فنهبه فعادوا إلى ترميمه وتجديد بنائه فجددوه على يد هيرودس سنة ١٨ قبل الميلاد . وأخيرا هدمه طيتس سنة ٧٠ م وتشتت اليهود . وفى سنة ١٣٣ م أعاد الامبراطور هدريان بناء الهيكل فى جملة ما أعاده من بناء المدينة . وأنشأ فيه معبدا لجوبتير الهه . ولما تنصر إمبراطوروا الرومان خفت وطأة الضغط عن اليهود فأذنوا لهم فى بناء هيكلهم لكنهم لم يستطيعوا ذلك . حتى اذا صار العرش الرومانى إلى يوستنيان الشهير فى القرن السادس للميلاد – وهو نصير النصرانية ومشيد الكنائس –

كان في جملة مساعيه أنه رمم هذا الهيكل وبنى فيه كنيسة وحول هيكل جوبتير إلى معبد مسيحى . فلما فتح المسلمون بيت المقدس في صدر الإسلام بنوا فيه قبة الصخرة والمسجد الأقصى . وعرف بالحرم الشريف ولا يزال إلى الآن .

آثار هيكل سليمان

والحرم الشريف واقع فى نفس البقعة التى كان فيها هيكل سليمان. ولم يبق من آثار ذلك الهيكل ما يستحق الذكر . وقد حاول النقابون درس أسس ذلك الهيكل وشكله وكيف كان وضعه واختلفوا فى ذلك اختلافا كثيرا حتى اتيح للدكتور شيك درس هذا الموضوع فى القدس . وتصور أجزاء الهيكل كما بناه سليمان . وشكله لما بناه هيرودس ثم هدريان وشكله لما بناه المسلمون ووضع مثالا لكل من هذه الأشكال كما كان فى زمن كل منهم . واصطنع ذلك قطعا من خشب بالاشكال المطلوبة ورتبها كالبناء تماما . وفي الشكل الأول صورة مثال هيكل سليمان نفسه كما اصطنعه الدكتور شيك .

طول هذا المثال الخشبى تسعة أقدام وعرضه خمسة أقدام ونصف وعلوه عشرون قيراطا . وقد أخذ الرسم من الزاوية الجنوبية الشرقية وهى الزاوية السفلى الظاهرة فى الرسم .

تليها إلى اليسار الزاوية الجنوبية الغربية وتقابلها فى الأعلى واليسار الزاوية الشمالية الغربية تليها إلى اليمين الزاوية الشمالية الشرقية . فاذا تصورت ذلك هان عليك أن تتصور الهيكل المذكور وما يحيط به من الابنية . تأمل هذا الرسم (ش١) فتجد مكان الهيكل على مرتفع يصعد إليه بسلمين أحدهما عند الزاوية الجنوبية الغربية والاخر عند الزاوية الشمالية الشرقية . ويشتمل هذا الشكل على صورة الهيكل وقصر سليمان وابنيته وأسوار وشوارع.

أما الهيكل فهو المربع الواقع أسفل الزاوية الشمالية الغربية فى القسم الغربى من النصف العلوى لهذا الرسم . فإنك ترى هناك بناءاً مربعا يليه من الجنوب ساحة كبيرة ويحيط بالبناء والساحة جميعا رواق ضخم. عليه من الجنوب والغرب أبراج هو سور الهيكل . والبناء المربع هو الهيكل . والساحة في الجنوب صحن الهيكل الخارجى . وترى داخل المربع فراغا فى شرقيه هو صحن الهيكل الأوسط . وفراغا آخر فى الغرب هو الصحن الداخلى وفيه المذبح. وبين هذين الصحنين حائط فيه باب كبير. ووراء الصحن

الداخلى غربا البناء الرئيسى للهيكل أو قدس الاقداس وفيه الكروبيم وتابوت العهد . ووراء سور الهيكل من الشرق شارعان وسوران . الخارجى منهما جزء من سور أورشليم القديم وعليه الأبراج . وأسفل سور الهيكل من الجنوب أبنية عديدة هى قصور سليمان ورجال حاشيته ونسائه .

الهيكل نفسه

وأما الهيكل نفسه فهو عبارة عن المربع الذى تقدم ذكره فى النصف العلوى من الرسم نحو الغرب. يحيط به من الجنوب الصحن الخارجى ويسمى صحن الأمم (الخوارج) . ومن الشرق الجانب الشرقى من الرواق . والهيكل المشار إليه بابه الخارجى فى الشرق يصعد إليه من الرواق الشرقى فى درجات . فإذا دخلت من ذلك الباب وصلت إلى الصحن الأوسط ويسمى صحن بنى اسرائيل. وفى غربيه حائط فى وسطه باب مرتفع يتصل منه بدرجات إلى الصحن الداخلى وهو صحن الكهنة. وفى هذا الصحن بناء عظيم الارتفاع هو الهيكل الرئيسى أو قدس الأقداس . وبين يديه فى الصحن المذبح الذى كانت تقرب عليه الذبائح أو المحرقات . وهو فى الرسم بقعة صغيرة سوداء . وأما قدس الأقداس فلا

يدخله إلا رئيس الكهنة وفيه تابوت العهد والكروبيم ومذبح البخور وغير ذلك . ووراء الهيكل نحو الشمال برج مستدير .

فلما تهدم هذا الهيكل أعاد هيرودس بناءه كما كان . لكنه غير وبدل فى قصور سليمان وفى البرج الواقع فى الشمال . واما هدريان فانه غير كثيرا من بناء الهيكل نفسه إلى نحو ماصار إليه الآن . جعل فى وسطه قبة تشبه قبة الصخرة وفي أسفله نحو الجنوب معبده الذى غيره يوستنيان الى كنيسة كما تقدم . فلما تملكه المسلمون بنوا فيه المسجد الاقصى والقبة كما ترى فى الشكل الثانى . وقد وضعنا ارقاما على أهم الأماكن لسهولة معرفتها .

والحرم ساحة جميلة واسعة لا يدخلها اليهود لئلا تقع اقدامهم على مكان قدس الأقداس من هيكل سليمان ومكانه غير معروف. وللحرم سبعة ابواب يمكن الدخول منها إليه. ويشتمل على عدة أبنية أهمها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد رأينا فى روايات العرب عنها أنهم يسمون الحرم كله «المسجد الأقصى» ويعدون قبة الصخرة والقباب الأخرى واقعة فى صحنه . وأما الآن فالساحة كلها

تسمى الحرم الشريف ويعدون المسجد الاقصى وقبة الصخرة جزءين مستقلين .

تاريخ بناء الحرم

المشهور أن باني المسجد الاقصى وقبة الصخرة هو عبدالملك بن مروان. ويذكرون في سبب بناء المسجد ان الامام عمر بن الخطاب لما جاء بيت المقدس لعقد الصلح مع أهلها على التسليم صلى هناك . وامر رجاله أن يتخذوا في ذلك المكان مصلى للمسلمين فاتخذوه كما سيأتي .

ولما تولى عبدالملك بن مروان بنى المسجد الاقصى . وفي ابن الاثير أن الوليد بنى المسجد المذكور . فلعله اتم بناءه .

قالوا «والمسجد الأقصى واقع في قرنة البلد الشرقية نحو القبلة اساسه من عمل داود طول الحجر عشرة اذرع أو أقل . وقد بنى عليه عبدالملك بحجارة صغار حسان وشرفوه . وكان أحسن من جامع دمشق لكن جاءت زلزلة في أيام بني العباس فطرحته الا حول المحراب . فلما بلغ الخليفة خبره أراد رده مثلما كان . فقيل له تعي ولم تقدر على ذلك . فكتب إلى أمراء الأطراف والقواد يأمرهم أن يبني كل واحد منهم رواقا . فبنوه اوثق واغلظ صناعة مما كان وبقيت

تلك القطعة شامة فيه . وهى الى حذاء الأعمدة الرخام وماكان من الأساطين المشيدة فهو محدث» قالوا وكانت وظيفته كل شهر مائة دينار وفى كل سنة ثمانمائة الف ذراع حصراء . وخدامه مماليك له اقامهم عبدالملك من خمس الاسارى ولذلك يسمونه الاخماس لا يخدمه غيرهم ولهم نوب يحفظونها» .

وهم يريدون بالمسجد الاقصى الحرم كله . ثم اشترك الخلفاء فى ترميم هذه الابنية والزيادة فيها حسب الاقتضاء ففى زمن المقتدر العباسى امرت امه (سنة ٣٠١ هـ) بصنع ابواب قبة الصخرة من خشب التنوب – وهو نوع من الخشب يشبه الصنوبر يؤتى به من الخارج .

وقد جدد فى المسجد والصخرة كثير من الخلفاء والسلاطين آخرهم السلطان سليمان القانونى . وسنشير الى ذلك فى اثناء وصف تلك الاثار فيكون أوقع فى النفس وارسخ فى الذهن .

فنبدأ بوصف قبة الصخرة ثم نصف المسجد الأقصى وأخيرا سائر ابنية الحرم .

قبة الصخرة

١ - وصفها من الخارج

أرض الحرم مبلطة ببلاط ضخم فى وسطها نحو الغرب دكة مربعة حولها رواق كالسور على أعمدة يصعد اليها بالسلالم . وفى وسط الدكة قبة كبيرة هى قبة الصخرة وبجانبها نحو الشرق قبة صغيرة اسمها قبة السلسلة . وقباب اخرى نحو الشمال اسمها قبة المعراج وقبة النبى وقبة الارواح . اهمها قبة الصخرة ويسميها الافرنج خطأ جامع عمر ولزيادة الايضاح فى الوصف تقسم هذا البناء الى ثلاثة اقسام كما تراه فى الشكل .

الثالث : الطبقة السفلى (٢) المنطقة المستديرة فوقها (٣) القبة نفسها . ونبدأ فى وصفها من الخارج . فالطبقة السفلى بناء فخيم جدرانه مثمنة الأضلاع فيها أربعة أبواب طول الضلع الواحد ٧٧ قدما وبعض القدم . اسفلها مصطفح بالرخام واعلاها مغشي بالقيشانى من أيام السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٦١م فى غاية الجمال لتناسب ألوانه . ويحيط بالبناء آيات من القرآن . منقوشة كالطنف . وفى كل ضلع سبعة شبابيك الا الجدران التى فيها الأبواب ففى كل

منها ستة شبابيك . ويظهر من هندستها إنها من صنع القرن السادس عشر .

والأبواب الأربعة يسمى الشمالى منها باب الجنة والغربى الباب الغربى والجنوبى باب القبلة وهو الذى يؤدى إلى المسجد الاقصى . والشرقى باب السلسلة أو باب داود.

وعلى عتبات هذه الأبواب نقوش كتابية جاء فيها أن بانى هذه القبة «عبدالله الأمام المأمون» لكن تاريخ البناء فى الداخل يدل على أنه بنى سنة ٧٢ هـ فى زمن عبدالملك بن مروان فالظاهر أن المأمون هو مجدد البناء أو مرممه .

والطبقة الثانية أو المنطقة حائط مستدير فوق البناء المثمن . فيه طاقات كبار من زجاج ملون ومذهب . وفوق المنطقة القبة وهى عالية جدا ملبسة بالصفر المذهب . إذا أشرقت عليها الشمس تلألأت وظهرت من بعيد . وهى مؤلفة من ثلاث طبقات الأولى البطانة التى يراها الداخل وسنأتى على وصفها . والطبقة الوسطى مصنوعة من أعمدة حديدية شبكت تشبيكا متينا لئلا تميلها الرياح والطبقة الثالثة وهى الخارجة من خشب عليها الصفائح الملبسة بالصفر وفى وسطها طريق مدرج يصعد فيه الصناع لتفقدها .

٢ - وصفها من الداخل

دخلنا ذلك البناء من باب السلسلة الشرقى فأدهشنا ما وقع عليه بصرنا من النقوش الجميلة على الجدران وفى باطن القبة ولاسيما الفسيفساء بألوانها التى تأخذ بالابصار وتستوقف الخاطر لإتقانها وجمالها وهو يبعث على التفكير فى مقدار ما أنفق فى هذا النقش من الأموال الطائلة . يدلك على ذلك أن بعض تلك النقوش تداعى إلى السقوط فأرادوا أن يتداركوه بالترميم فاستقدموا مهندسا ماهرا طلبوا إليه أن يقدر النفقات اللازمة لذلك الترميم فقدرها بعشرين ألف جنيه فتأمل قطر البناء المثمن عند أسفله ٥٧ مترا ويقسم إلى ثلاث مناطق أو أروقة الواحد داخل الآخر . يفصل بينها صفان من الاعمدة موازيان للجدار. فالرواق الأول واقع بين جدار القبة وصف من الأعمدة فيه ثمانى عضائد تقابل زوايا البناء وتشبيها بأشكالها . بين كل عضادتين عمودان من الرخام جملتها ستة عشرا عمودا . تختلف طولا ولونا لأنها جمعت فى الأصل من أنقاض هياكل قديمة ولاسيما هيكل جوبتير المتقدم ذكره . وكذلك تيجانها فإنها مختلفة الأشكال والأقدار من الطرز البيزنطى ولا يزال على أحدها اثر صليب. علو هذا

الرواق عشرون قدما تتحد أعمدته من أعلى التيجان بأحجار ضخمة مستقرة على جسور من الخشب مدعمة بالحديد أسفلها مصفح بالنحاس . وعلى الجسر قطع من الرخام حافاتها بارزة مزركشة . وهناك رخامات عليها نقوش من زمن السلطان سليمان . وأما الجدار المثمن من الداخل فاعلاه مزخرف بالفسيفساء بأشكال جميلة متداخلة فيها رسوم الأزهار وغيرها . وفوق ذلك منطقة زرقاء عليها نقش كوفى قديم بأحرف ذهبية هى آيات قرآنية متفرقة هذا نصها : «وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا» .

«له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير» .

«يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا» .

«والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن

يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم».

وهناك نقش كوفى أن هذا البناء تم سنة ٧٢هـ أى فى زمن عبدالملك بن مروان . وعلى النوافذ من البناء المثمن اسم السلطان سليمان وتاريخ سنة ٩٣٥هـ ويقال أن صلاح الدين كسا الحائط بالرخام والسلطان سليمان أعاد الكساء.

والرواق الثانى داخل الأول واقع بين صف الأعمدة المتقدم ذكره ، صف آخر مرتب بشكل مستدير لأن القبة مستقرة عليه . وهو مؤلف من أربع عضائد ضخمة بين كل اثنتين منها ثلاثة أعمدة الجملة ١٢ عمودا من الرخام . وهى قديمة مثل تلك وقد كسيت قواعدها بالرخام فى القرن السادس عشر . تتصل من أعلاها بعقود متينة . وحول هذه الأعمدة فى الأسفل حاجز قصير من الحديد صنعه الأفرنج فى القرن الثانى عشر للميلاد يوم حولوا هذه القبة إلى كنيسة فوضعوا هذا الحاجز ليناسب عاداتهم فى الصلاة .

وبين القبة نفسها وهذا الرواق المنطقة المستديرة المتقدم ذكرها . وهى مصفحة من الداخل بالفسيفساء على الطراز البيزنطى صنع القرن العاشر أو الحادى عشر للميلاد . يمثل

زهريات فيها عناقيد العنب وسنابل القمح فى أعلاها ١٦ نافذة عليها أغطية من ملاط فيها ثقوب مختلف الشكل والحجم . فتحاتها الداخلية أوسع من الخارجية وقد أقفلت الفتحة الخارجية بزجاج ملون تتألف منه أشكال جميلة . إذا أغلقت أبواب البناء ونفذ النور منها إلى داخل القبة ظهر بشكل بديع .

أما القبة نفسها فقد بناها الحاكم بامر الله سنة ٤١٣ هـ على أنقاض القبة الأصلية وكانت قد سقطت سنة ٤٠٧ هـ علو القبة من الداخل ٣٧ قدما وعرضها ٦٦ قدما . لكن علوها من الظاهر ٩٨ قدما لأنها مؤلفة من طبقات كما تقدم وفى باطن القبة نقش يدهش النظر بألوانه المتناسبة قاعدته زرقاء ، صنع فى زمن السلطان صلاح الدين وأعيد صقله بعده مرارا.

وفى أرض هذا البناء داخل الرواق الأخير صخرة كبيرة يحيط بها حاجز خشبى كالداربيزين طولها ٥٨ قدما وعرضها ٤٤ قدما . وعلوها معظمه ستة أقدام فوق أرض البناء المحيطة بها . واختلف الباحثون فى أصلها ويظن بعضهم أنها المذبح الذى كانت تقدم عليه المحرقات لأنهم اكتشفوا

تحتها قناة تجرى فيها دماء الذبائح ينزل إليها فى ١١ درجة نحو الجنوب . ولكن هذا الرأى يخالف ما تقدم عن موضع المذبح من هيكل سليمان حيث كان تابوت العهد وقدس الأقداس . فلعل القناة التى اكتشفوها تؤدى إلى صهريج . وفى التلمود حكايات كثيرة تتعلق بهذه الصخرة.

حول قبة الصخرة

وفى قبة الصخرة آثار دينية أخرى أغضينا عن ذكرها . ونكتفى بوصف مايحيط بها من القباب . أولها قبة السلسلة وتسمى أيضا محكمة داود . يظنون ان الملك داود كان يجلس هنا للقضاء .

وقبة المعراج ويعتقد المسلمون أنه المكان الذى عرج منه النبى ﷺ من القدس إلى مكة . ويؤخذ مما على هذه القبة من النقوش أنها بنيت سنة ٥٩٧ هـ وشكلها من النوع القوطى. ووراءها نحو الشمال الغربى قبة النبى يظهر أنها حديثة وتحتها مسجد النبى فى الصخر . وهناك قبة تسمى قبة الأرواح بجانبها قبة الخضر . وفى الزاوية الشرقية الجنوبية للدكة منبر القاضى برهان الدين نسبة إلى بانيها تتلى عندها خطبة كل جمعة فى رمضان . وفى الجنوب بين

قبة الصخرة والمسجد الأقصى بئر يقال لها بئر الكاس هى بالحقيقة خزان للماء وغير ذلك .

المسجد الأقصى

واقع فى القسم الجنوبى من الحرم وهو بناء مربع له جناحان أحدهما فى الشمال ممتد نحو الشرق والآخر فى الجنوب يمتد نحو الغرب . مشينا إليه من باب قبة الصخرة القبلى فنزلنا من الدكة بدرجات مررنا ببئر الكاس واقبلنا على المسجد من بابه الشمالى . والمظنون أن هذا المسجد بنى فى مكان كنيسة بناها يوستنيان هناك على اسم السيدة مريم . ولما جاء عمر إلى القدس صلى فى مكان منها هو الآن غرفة فى طرف المسجد نحو الجنوب والشرق فبنى المسلمون مسجداً هناك . ولما تولى عبدالملك صفح أبوابه بالذهب والفضة . وفى أيام أبى جعفر المنصور تصدع جانباه الشرقى والغربى . بزلزال فاضطروا للإنفاق على ترميمه أن يضربوا ماكان عليه من الذهب والفضة نقودا. ولما تولى المهدى (سنة ١٥٨ هـ) كان المسجد قد أصابه زلزال آخر فأعاد بناءه وغير شكله فقلل طوله وزاد فى عرضه . وسقط سقفه سنة ٤٥٢ هـ فأعيد ولم يبق من أنقاض بناية يوستنيان إلا القليل .

طول المسجد ٨٦ مترا . إذا دخلته من بابه الشمالى المقابل لقبة الصخرة مشيت بين صفين من الأساطين الضخمة متصلة بأعلاها بسبعة عقود بناها الملك المعظم عيسى الأيوبى (٦٢٥ هـ) ثم أعيد بناؤها . وسقفها الموجود الآن من بناء القرن الخامس عشر للميلاد فيه مشابهة للطراز القوطى .

وينتهى ذلك المدخل الى بقعة فوقها قبة يظن أنها من بناء المهدى . وفيها نقش عليه كتابة أن صلاح الدين أعاد بناءها وهى مصنوعة من الخشب مصفحة بالرصاص من الخارج وأما داخلها فإنه مزين مثل زينة قبة الصخرة . وعليها اسم السلطان محمد بن قلاوون لأنه أعاد زينتها. وفى صدر المسجد محراب تأنق صانعه فى صنعه من الخشب المنزل بالعاج والصدف فى أجمل ما يكون . فعل ذلك رجل حلبى بشارة السلطان نور الدين سنة ٥٦٤ هـ . فإذا مشيت نحو اليسار انتهيت إلى مسجد عمر . وأما فى اليمين فتسير فى رواق طويل . وفى أفاريز المسجد نقوش كتابية أكثرها آيات من القرآن. وفى نوافذه زجاج ملون مثل ما تقدم عن زجاج قبة الصخرة .

سائر أبنية الحرم

ومما يستحق الذكر من أبنية الحرم اسطبلات سليمان . وهى عبارة عن أقبية يتألف منها معظم القسم الجنوبى الشرقى من ساحة الحرم . لأن تلك الساحة كانت فى أصلها جبلا غير متساوى السطح . فالظاهر أنهم ابتنوا تلك الاقبية لأجل تسويته . والأقبية ضخمة ويظهر من حال قواعدها ومافيها من الثقوب أو الحلقات أنها كانت مرابط للدواب . ينحدر إليها الزائر من باب الزاوية الجنوبية الشرقية من ساحة الحرم . وهناك أماكن كثيرة ينسبون إليها حوادث تاريخية بعضها يفتقر إلى إثبات وكان لهذه الأقبية شأن فى حصار اليهود فإنهم كثيرا ماكانوا يختبئون فيها .

وسور الحرم بعضه قديم وبعضه حديث. وكذلك أبوابه وأهمها من الوجهة التاريخية باب الذهب ويسميه العرب باب الظاهرية مؤلف من ثلاث قناطر، الشمالية منها تسمى باب التوبة والجنوبية باب الرحمة . وبعض الباب الحالى من بناء القرن السابع للميلاد . والباقى بناه العرب فى أوائل القرن التاسع . وفى واجهته الشرقية أعمدة من الرخام يقول اليهود إن ملكة سبأ أهدتها إلى سليمان . والباب المذكور مغلق من

زمن بعيد ويقال إنه كان مستعملا فى زمن الصليبيين كانوا يفتحونه فى أحد الشعانين ثم أقفل ولا يزال مقفلا .

سائر آثار القدس

إن كنيسة القيامة والحرم الشريف أهم آثار القدس وقد تقدم وصفهما. يليهما آثار عديدة قليلة الأهمية فنختصر فى وصفها:

مبكى اليهود

واقع وراء جدار الحرم الشريف فى الغرب وهو عبارة عن حائط حجارته ضخمة يتصل بسور الحرم من خارجه، أو هو جزء منه ويعتقد اليهود أنه جزء من هيكل سليمان فيقفون عند ذلك الحائط كل يوم جمعة يبكون مجدهم ويندبون استقلالهم. طول هذا الحائط نحو خمسين مترا. الصف السفلى من أحجاره تسعة أحجار ضخمة بينها حجر فى الشمال طوله خمسة أمتار ونصف متر وعرضه ثلاثة أمتار ونصف. وفوق هذا الصف ١٥ صفا حجارتها أصغر. وعلى هذه الأحجار كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية أكثرها أسماء بعض الزوار.

وقفنا أمام ذلك الحائط وعنده عشرات من اليهود رجالا ونساء بين واقف وقاعد. وقد علا ضجيجهم وارتفعت أصوات بكائهم. وفيهم من يقرأ دعاء أو يتلو آية. وسمعنا بعض النساء يندبن ويبكين بصوت عال. وواحدة منهن تشهق شهيق الثكلى من فرط البكاء وهى مولية وجهها نحو حجر من تلك الأحجار تكاد تبلله بدموعها. فأثر منظرها فى نفسنا تأثيرا عظيما ؛ لأنها كانت تبكى بلهفة كأنها تندب فقيدا عزيزا. فأعملنا فكرتنا فى الباعث على هذا البكاء وهل هو التأسف على مجد اليهود الزائل كما يقولون؟ فإذا صح ذلك كان لليهود شعائر جنسية لا مثيل لها فى العالم. لأن الوافدين إلى ذلك المبكى أكثرهم من طبقة العامة البسطاء. فإذا كان فى أولئك البسطاء مثل هذا الشعور السياسى أو الاجتماعي فكيف فى الطبقة الراقية المتعلمة؟ لكننا نظن الباعث على ذلك البكاء بالأكثر شعورا خاصا فى الباكى نحو فقيد أو مريض من أهله أو نويه – إذا جاء المبكى تذكره وبكاه أو صلى من أجله أو طلب الشفاء له بحرارة. كما يفعل الثاكل إذا شهد مأتما وإن كان ميت ذلك المأتم لا يهمه لكنه يتذكر مصيبته فيبكى فقيده وإن طال الأمد على موته.

ولهم أناشيد يتلونها فى موقفهم هناك باللغة العبرانية يندبون فيها الهيكل وخرابه وما تهدم من جدرانه وما ضاع من عزه واحترق من جواهره.. وما أصاب كهانه من الذل. ويستنزلون الرحمة على صهيون ويتوسلون إلى الله أن ينجيهم من الذل ويعيد إليهم ملكهم فى أورشليم.

جبل الزيتون

ليس من النصارى من لم يقرأ اسم هذا الجبل فى الإنجيل. وهو واقع شرقي القدس يفصل بينهما وادى ستى مريم. ويقال له أيضا جبل الطور وجبل النور أو هذا جزء منه. وفي الطريق من القدس إلى هذا الجبل أماكن أثرية كثيرة لكل منها حديث ووصف يضيق المقام عنه. منها قبر العذراء وكنيسة ستى مريم وبستان الجسمانية ومعهد الإمبراطورة فكتوريا وكرم الصياد وكنيسة الصعود وأديرة وكنائس مختلفة وقبور الأنبياء. وإنما يهمنا فى هذا المقام الإشارة إلى مظهر القدس للواقف على ذلك الجبل فإنه يشرف على المدينة فتبين له أحياؤها وقصورها وأديرتها واضحة. ولابد لمن يزور القدس من أن يصعد إلى هذا الجبل ويشرف منه على كنيسة القيامة والحرم وغيرهما من الأبنية.

وفى وادى قدرون وما يليه قبر ابشالوم ومغارة القديس يعقوب وهرم زخرنا وجبل بطن الهواء وعين العذراء أو عين ستى مريم وبركة سلوان أو عين سلوان وحقل الدم وغيرها. وفى القدس آثار أخرى تزار مثل مغارة أرميا ودير الدومينكان وقبور الملوك وقبور القضاة والنبى داود وغيرها.

بيت لحم

وفى ضواحى القدس كثير من الأماكن التاريخية أهمها بيت لحم لأن فيها المغارة التى ولد فيها المسيح والطريق بينهما سهل فى المركبات. وفى بيت لحم وحولها كثير من الأماكن التى تستحق الزيارة مثل دير مار الياس وقبة راحيل وبيت جالا ودير الفرنسيسكان ودير الكرمل ومدرسة بليونى ومستشفى اخوات الإحسان وأديار أخرى عديدة أهمها كلها كنيسة الميلاد أو الولادة بنيت فوق المغارة التى يعتقد المسيحيون أن المسيح ولد فيها.

والكنيسة المذكورة تخص الروم واللاتين والأرمن دون سواهم من الطوائف النصرانية . ويحيط بها كثير من الكنائس والأديار . يتصل إلى باب كنيسة المغارة بالنزول عدة درجات.

نزلنا إلى ذلك الباب ودخلنا الكنيسة وهى مبنية فوق المغارة، فرأينا طولها ٤٠ قدما من الشرق إلى الغرب وعرضها ١٢ قدما وعلوها عشرة أقدام. وهى مرصفة بالرخام وفيها ٣٢ مصباحا ، معلقا. وتحت مذبحها كوة فى أرضها نجم من الفضة عليه نقش باللاتينية مفاده ميلاد المسيح. وحول الكوة ١٥ مصباحا ستة منها للروم وخمسة للأرمن و٤ للاتين. وفى جدار تلك الكوة آثار نقوش من الفسيفساء تدل على أن هذا المكان كان مزينا زينة باهرة فى أيام قسطنطين، وله احترام عند المسلمين.

ومقابل تلك الكوة فى الجهة الأخرى من الكنيسة باب صغير ينزل منه ثلاث درجات إلى المنود الذى وضع فيه المسيح عند ولادته. لكن المنود نفسه غير ظاهر لأنهم كسوه بالرخام الأبيض فى أسفله وبالأسمر فى صدره. ووضعوا فيه تمثالا من شمع يمثل الطفل يسوع. على أن هذه الكنيسة ومغارتها تقلبتا فى أثناء النصرانية على أحوال شتى. وبجانب المغارة مكان يريدون به موقف المجوس لما جاءوا ليسجدوا وهو خاص باللاتين. وقد اقتسمت الطوائف الثلاث المتقدم ذكرها أجزاء هذه الكنيسة بينها كما فعلوا فى كنيسة القيامة.

وشاهدنا الحرس وقوفا بأسلحتهم منعا لما قد يحدث من الخصام بسبب التنازع على تلك الأجزاء.

مسجد الخليل

الخليل أو حبرون على مسافة بضع ساعات من القدس وقد اشتهرت بقبور إبراهيم الخليل وعائلته. مسجدها طوله من الشمال إلى الجنوب ١٩٧ قدما وعرضه ١١١ قدما حوله سور ضخم يشبه ما ذكرنا عن شكل هيكل سليمان فى القدس. أصله من بناء اليهود وصار قبل الإسلام كنيسة ثم جعله المسلمون جامعا وأنشأوا فيه منبرا يشبه منبر المسجد الأقصى. وفى الزاوية الشمالية الشرقية نقش يونانى يظن أنه من زمن الإمبراطورى يوستنيان فيه ذكر إبراهيم ودعاء للذين بنوه.

وتحت المسجد غار قديم فيه أضرحة الآباء الأولين إبراهيم وأبنائه. دخوله ممنوع حتى على المسلمين ولا يؤذن فى رؤيته إلا بفرمان خاص من السلطان. وقد صدر مثل هذا الفرمان سنة ١٨٦٢ لولى عهد إنكلترا لما جاء الخليل فى تلك السنة. ولم يتمكن أحد من تصوير أضرحته إلا مصور سورى تمكن بإذن خاص من تصويرها بالفوتوغراف منذ بضع سنين

وقد نشرنا صورها وأخبارها فى السنة الثامنة عشرة من الهلال.

ووضع هذه القبور فى الغار متحانية، ولكل قبر حجرة قائمة بنفسها لها باب من قضبان الحديد مطلية بالفضة. وفى وسطها مزار كالقبة على شكل الأضرحة فى المزارات الاعتيادية. وكل منها مكسو بالديباج المطرز بالآيات والكتابات والنقوش الجميلة.

ولكل ضريح وصف خاص وعليه نقش خاص وكتابة خاصة تدل على اسم المدفون فيه. فعلى ضريح يعقوب قوله «هذا قبر يعقوب النبى عليه السلام» وعلى قبر لائقة «هذا قبر سيدتنا لائقة رضى الله عنها زوجة النبى يعقوب عليه السلام».

وفى حبرون شجرة بلوط قديمة فى مستشفى روسى هناك يقال إنها بلوطة ممرا أو بلوطة إبراهيم.

نابلس وما يجاورها

وفى الطريق من القدس إلى نابلس كثير من الآثار القديمة كل منها ينسب إلى حادث من حوادث التوراة أو جاء ذكره فيها مثل البيرة وعين الحرامية واللبن وغيرها.

بير يعقوب

وأشهر الآثار فى ذلك الطريق بير يعقوب على مقربة من نابلس. والمظنون أنها البئر التى التقى السيد المسيح عندها بالمرأة السامرية. وبالقرب منها دفن يوسف الصديق ثم نقل إلى حبرون . وبنى النصارى فوق البئر معبدا تهدم وتقلبت عليه أحوال مختلفة وهو اليوم فى أيدى الروم الأرثوذكس رأيناهم فى الصيف الماضى يبنون فوقه كنيسة فخمة وديرا.

وقد نزلنا إلى الغرفة القائمة فوق البئر وفيها مذبح كالمعبد . ومن شاء أن يرى قاع البئر ينزلون له الشموع المضيئة على صفيحة تتدلى بالحبل إلى أسفلها فيرى القاع وماءه ، وفوهة البئر أحجار كبيرة موضوعة حوله بشكل مربع.

نابلس

هى مدينة قديمة تسمى فى التوراة «شكيم» جاء ذكرها فى عهد الآباء الأولين وقد خيموا مدة بجوارها وفيها اجتمع يشوع آخر اجتماع مع الشعب.. ولها ذكر كثير فى تاريخ الروم وهم سموها Neapolis أى البلد الجديد ومنها نابلس. ولنابلس شأن خاص بوجود طائفة السامرة فيها وسنفرد

فصلا خاصا لتاريخ هذه الطائفة وتعاليمها وتوراتها وأحوالها الاجتماعية فيمايلى من هذه الرحلة:

ترتفع نابلس عن سطح البحر نحو ١٨٧٠ قدما. وهى مركز لواء تابع لولاية بيروت عدد سكانها نحو ٢٧٠٠٠ نسمة معظمهم مسلمون وفيها ثمانية مساجد وبضع مدارس لا يزيد عدد المسيحيين فيها على ٧٠٠ نفس والسامريون نحو ١٧٠ نفسا. وهى واقعة بين جبلين: جرزيم وعيبال. وأسواقها كثيرة الشبه بأسواق القدس القديمة. وقد أخذوا فى بناء القصور على النمط الحديث، وسنعود إلى وصفها عند كلامنا عن أحوال فلسطين الاجتماعية. وإنما يهمنا الآن الكلام عن آثارها التاريخية، وأكثرها سامرى. أكثر ابنيتها فى سفح جبل جرزيم ولهذا السفح منظر جميل لمن يشرف عليه من الجبل المقابل لكثرة حدائقه وبساتينه. ويسمى جبل جرزيم أيضا جبل الطور والجبل القبلى وعليه أكثر الآثار السامرية، قمته مسطحة عليها آثار قلعة يظن أنها من بناء يوستنيان الرومانى أحجارها ضخمة وهناك صهاريج وأنقاض يختص السامريون حجرا مرتفعا منها يزعمون أنه مذبح هيكلهم القديم من عهد موسى أو قبله. ويدلونك على نقطة فى الزاوية

الجنوبية الشرقية من الجبل يقولون إنها المكان الذى أوشك إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل فيه. ويرى الواقف على ذلك الجبل منظرا طبيعيا بديعا لما يطل عليه من الجبال والقرى والأودية إلى بعد شاسع.

أما جبل عيبال أو الجبل الشمالي فعلوه ٣٠٧٧ قدما على قمته أطلال قلعة قديمة وخرائب كنيسة. والمنظر منها أكثر إشراقا من جبل جرزيم شمالا إلى الجليل.

حيفا

وفي الطريق من نابلس إلى حيفا يمر المسافر بكثير من الأماكن الأثرية أهمها سبسطية وهى السامرة القديمة اشتهرت فى أيام المكابيين وبها سميت أكثر فلسطين لا تزال أنقاضها باقية على تل علوه ٣٢٠ قدما فوق الطريق. وبعدها جنين وهي بلد عامر النفوذ فيه لآل عبد الهادى مثل سائر جبال نابلس كما سيجيء فى كلامنا عن الحالة الاجتماعية. وهناك سهل يزرعيل واللجون وغيرها إلى حيفا.

وحيفا مدينة تجارية جميلة ازدادت عمرانا فى هذا العصر عدد سكانها - ولا سيما بعد أن صارت محطة للسكة الحديدية الحجازية - نحو ٢٠٠٠٠ نفس وقد كثرت

فيها الأبنية على الطراز الجديد واتسعت تجارتها، وكان مكانها في زمن اليونان والرومان بل اسمها سيكانيوم ولها دخل في الحروب الصليبية وغيرها . وفيها مستعمرة المانية.

جبل الكرمل

وليس في حيفا من الآثار التاريخية ما يستحق الالتفات إلا جبل الكرمل ويسمى جبل مار الياس.. وله ذكر في التوراة وهو يمتد من شاطئ بحر الروم نحو الجنوب والشرق إلى مرج ابن عامر. وقد بنيت حيفا في سفحه الشرقي ولها ميناء مجوف كبير.

وعلى قمة جبل الكرمل دير مار الياس علوه ٥٥٨ قدما عن سطح البحر، للاتين الكرمليين فيه نحو عشرين راهبا وكنيسة مبنية على النمط الإيطالي المزخرف وفيها صور قديمة وتماثيل. وتحت المذبح مغارة يزعمون أن النبي الياس كان يقيم فيها. وللدير شرفة تطل على مسافة بعيدة من البحر والبر. ويقع بصر الواقف عندها على سهل يزرعيل ونهر كيشون وتل قسيس وجبال الناصرة وطابور وبعض جبل حرمون وسهول الأردن وعكا وزمارين وغيرها.

وعكا واقعة شمالى حيفا على شاطئ البحر، وهى بلد مسور تاريخه طويل يتصل بأخبار التوراة ولها دخل فى أهم المواقع الحربية البحرية فى زمن اليونان والرومان والإسلام. عدد سكانها نحو ١٢٠٠٠ نفس وهى عبارة عن قلعة كبيرة كالرأس داخلة فى البحر. واشتهرت على الخصوص فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر بمن ظهر فيها من الولاة والأمراء مثل ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار وعبد الله باشا واتخذتها الدولة العثمانية سجنا أو منفى لكبار المجرمين.

ولا يزال سورها باقيا إلى الآن وقد تهدم بعضه وفتحت الحكومة جانبا منه لإطلاق سبيل المدينة والتوسعة على أهلها. وكثيرا ما كنا نسمع عن فظائع الجزار صاحب عكا وعن تعذيبه الناس فى السجون المظلمة، فلما دخلنا المدينة اتجه همنا بالأكثر إلى مشاهدة ذلك السور والإطلال على تلك السجون.

سور عكا وسجن الجزار

أما السور فإنه مزدوج ضخم جدرانه قائمة على قناطر متينة عقودها مقفلة من الخارج مفتوحة من الداخل، ولا تزال بعض المدافع القديمة مبعثرة هناك. وكان للسور باب واحد

فى الشرق ففتحوا بابا آخر فى الغرب أو طريقا تقدم ذكره وأكد لنا وجيه من وجهاء عكا أن الفعلة. وهم ينقبون فى السور لفتح ذلك الطريق عثروا على هياكل بشرية مدفونة بين جدارى السور، فثبت لدينا ما كنا نسمعه عن شدة وطأة الجزار على المجرمين أنه كان يضعهم وهم أحياء فى السور ويبنى فوقهم.

وبحثنا عن سجن الجزار فإذا هو فى القسم الجنوبى من السور تحت الأرض فى أقبية مظلمة يستطرق بعضها إلى بعض وقد خيم الإهمال عليها. وشاهدنا فى خرائبها بعض آلات العذاب للصلب أو القتل. وقطعا من أدوات المدافع ونحوها. فهذه الآثار الفظيعة يجدر بالحكومة أن تنقل منها ما يستحق التذكار وتضعه فى متاحفها.

وداخل المدينة شوارع تشبه شوارع سائر مدن تلك الأيام لا تزال كما كانت فى زمن الجزار، وفى عكا عدة أبنية كبيرة فى جملتها قصر عبدالله باشا وهو الآن مسكن بعض الوجهاء بالأجرة.

وأهم آثار عكا التاريخية جامع الجزار وهو مسجد فخم بين يديه صحن فيه مغارس وأساطين. ويشبه فى شكله شكل

جامع محمد على بالقلعة لكنه أقل فخامة منه. وعلى عتبته العليا قصيدة فيها بيت لتاريخ بنائه سنة ١١٩٦ هـ.

وبجانب الجامع غرفة فيها قبر الجزار عليه ضريح فيه نقوش كتابية هذا نصها:

«هذا قبر المرحوم المحتاج إلى غفران الواحد الغفار الحاج أحمد باشا الجزار عليه رحمة العزيز الغفار سنة ١٢١٩».

ثالثا - أحوالها الاجتماعية

٢ - نظام الاجتماع فيها

إن نظام الاجتماع فى فلسطين الآن فى دور الانتقال مثل نظام الاجتماع فى سائر الشرق العربى . فلا يستطاع تعيين طبقاته والتفريق بينها بوضوح. لكننا لا نعدم وسيلة لتمثيله للقارئ على قدر الامكان.

كان نظام الاجتماع فى الشرق العربى أو الاسلامى إلى أوائل القرن التاسع عشر نحو ما كان عليه فى الأجيال الاسلامية الوسطى مؤلفا من طبقتين الخاصة والعامة. والخاصة عبارة عن الحكومة وأرباب البيوتات ومن يلحق بهم. والعامة هم التجار والصناع والفلاحون ونحوهم - وبما أن الحكومة تركية وأكابرها من الأتراك . والرعايا من العرب كانت الخاصة رجال الحكومة الأتراك ومن يلحق بهم من الاعوان. والعامة أكثرهم من العرب ابناء البلاد . وبما أن

الحكومة إسلامية فالمسلمون كانوا أعز جانبا وأقوى نفوذا من سواهم . وإذا جمعت بين القضيتين تبين لك أن طبقات الاجتماع في فلسطين وسوريا ثلاث (١) رجال الحكومة الاتراك ومن يلحق بهم (٢) المسلمون أهل الانساب والموظفين وغيرهم (٣) المسيحيون واليهود أو أهل الذمة. فالسيادة أو النفوذ للمسلمين . وكانت الآداب الاجتماعية من حيث العادات والمعاملات أيضا إسلامية - حتى الحجاب فان استعماله كان عاما عند المسلمين وسواهم . وكان المسيحيون فرقا لا تزال باقية إلى الآن. وكل فرقة مؤلفة من طبقتين : العامة وفيهم التجار والصناع وغيرهم يرأسهم طائفة الاكليروس فى أحوالهم الاجتماعية ونظاماتهم العائلية حتى فى شئونهم الشخصية . وهؤلاء هم الخاصة عندهم مع رجال العشائر القديمة. على أن سيادة رجال الدين كانت ولا تزال شائعة عن الطوائف النصرانية وغيرها .

ذلك كان نظام الاجتماع لما حمل بونابرت على مصر والشام في آخر القرن الثامن عشر ومعه بذور المدنية الحديثة. لكنه لم يمكث طويلا ولم يبق لحملته أثر اجتماعى يستحق الذكر . ثم دعت الأحوال السياسية وغير السياسية إلى تكاثر

الأجانب فى بلادنا لأغراض مختلفة وسلاحهم الامتيازات الاجنبية يحمون بها أرواحهم وأموالهم . وأخذت كل فئة منهم فى فتح المدارس ونشر العلم لأغراض أكثرها تبشيرى فى سبيل نشر النصرانية . وأخذت كل طائفة تبث آدابها وتعاليمها - وانتشار آداب القوم فى أمة يحبب أولئك القوم إليها - ولم يقبل على تلك المدارس التبشيرية فى أول الأمر غير المسيحيين فكانوا لذلك أسرع تناولا للعلم الحديث وغيره من أسباب هذه المدنية .

وعكفوا على مطالعة آداب الافرنج ولاسيما الفرنساوية ونبغ منهم المتأدبون بالآداب الحديثة ودبت فيها روح العصر المبنية على الحرية الشخصية . وتعلموا لغات الأجانب وسائر عوامل هذه المدنية من الصحافة والطباعة ونحوهما . وسهل عليهم الاشتغال بالصنائع الافرنجية والتجارات الحديثة. فخفوا للاسفار فى سبيل التجارة أو العلم وأكثرهم من العامة فاكتسبوا الأموال وظهروا فى عالم السياسة والعلم فى بلادهم وخارجها .

ثم رأى عقلاء المسلمين ثمار العلم فى جيرانهم فعكفوا على التعلم فى المدارس الافرنجية والوطنية على النمط

الحديث وتعلموا اللغات والتجارات والصنائع ونبغت منهم طائفة حسنة على قواعد المدنية الحديثة.

فتولد فى نظام الاجتماع بسوريا وفلسطين طبقة المتعلمين من النصارى والمسلمين وأكثرهم من العامة الذين ارتقوا بجدهم وسعيهم حتى صاروا من الخاصة فى الثروة والوجاهة والعلم . وفيهم الشبان المفكرون طلاب الاصلاح يريدون مجاراة الأمم الراقية فى نظام الاجتماع والاهتمام بترقية شئونهم بحيث ينال كل ذى حق حقه . فاخذوا يقلبون الدفاتر القديمة وينقبون عن الغلطات المتوارثة ويحاولون اصلاحها فى سبيل المصالح العامة على اختلاف أوجهها. فتألفت الأحزاب الاصلاحية لمطالبة رجال الدين باصلاح نظام معابدهم وضبط أوقافها. والأحزاب السياسية لمطالبة الحكومة باصلاح ادارتها ومشاركة الأمة فى أمورها . ويعبر عن هذه الحركة بقيام العامة على رؤسائهم الدينيين والسياسيين . فشق ذلك على الرؤساء واتفقت مصالحهم فى مقاومة ذلك التيار. وكلا السلطتين استبدادية فتعب المطالبون ولاسيما طلاب الاصلاح السياسى . ومازالوا يتكتمون أو يلجأون إلى من يحميهم من الدول الاجنبية . حتى اشتد ساعدهم وفازوا

بقلب الحكومة. فلما صارت الحكومة دستورية استبشر طلاب الاصلاح من كل طائفة وجاهروا بمطالبهم الدستورية فى سبيل مصالحهم الطائفية أو الدينية - وهم لا ينالونها إلا بمساعدة الحكومة .

الارثوذكسيون وأخوية القبر المقدس

هذه قضايا عامة تصدق على معظم الشرق العربى وخصوصا على فلسطين . ونعنى هنا قيام الشعب الارثوذكسى على كهنته يطالبونهم بحقوقهم المهضومة. ولهم مسوغ لذلك القيام ليس لسواهم. نعنى أن هاضمى حقوقهم يختلفون عنهم جنسا ولغة - فضلا عن استبدادهم بالرئاسة الدينية. فقيام الارثوذكسيين على رهبنة أخوية القبر المقدس طبيعى لأن هذه الأخوية قديمة ولها أوقاف طائلة تتصرف بها فى مرافق لا ترى الطائفة لها الحق فيها . فقامت تشكو من صرف تلك الأموال فى غير ما رصدت له . وطلبت ضبط حساباتهم واعطاء كل ذى حق حقه - يرمون من وراء ذلك إلى القبض على أوقافهم بأيديهم . فشق الاذعان لهذه المطالب على الرهبنة واحتدم الجدال منذ بضع عشرة سنة . وقد ثبت الفلسطينيون فى المطالبة ثباتا حسنا واتخذوا كل وسيلة يمكن

الوصول إليها من تأليف الجمعيات ونشر المنشورات وكتابة المقالات وتشكيل الوفود وتقديم العرائض فلم يجدِ ذلك نفعا على عهد عبدالحميد. فلما أعلن الدستور استأنفوا الشكوى وبعثوا وفدا إلى الأستانة التقينا به فى رحلتنا هناك منذ بضع سنين. فأجابت الحكومة طلبهم بتأليف مجلس مختلط من العرب واليونان يقرر ما يجب عمله وأشياء أخرى . ولم يأت ذلك بنتيجة بعد لأن شروط تشكيل المجلس تغيرت. وسعت الرهبنة فى التفريق بين الناهضين بأساليب مختلفة لا محل لها هنا. فوقفت هذه الحركة مؤقتا والنفوس لاتزال نازعة إلى مطالبها ولابد من أن تنالها وتنال الاستقلال الكنسى كما نالته بلغاريا والشام وغيرهما

وهذه النهضة الاجتماعية في فلسطين غير قاصرة على النصارى فإن المسلمين أيضا نهضوا فى مثل هذه المطالب لضبط أوقافهم المرصدة للمدارس وغيرها.

رابعا - أحوالها الاقتصادية

ونعنى احوال فلسطين من حيث مصادر الرزق وأبواب المعاش. ويقال فى فلسطين نحو ما يقال فى سوريا. وذلك أن أبواب المعاش تبدلت بعد النهضة الاجتماعية فى هذا القرن

وحدثت مهن وتجارات لم يكن يعرفها آباؤنا. وزادت أبواب النفقة وانتقلت الثروة الراقدة من الأسر القديمة إلى من يحسن استثمارها. ونبغت طائفة من الاغنياء الذين أثروا بجدهم واجتهادهم بالاتجار أو المهاجرة أو غير ذلك. وانقرضت بيوت قديمة كان لها مجد موروث - شأن الأمم فى انتقالها من طور إلى طور.

الارتزاق بالمهاجرة

فتح هذا الباب للسوريين منذ نحو اربعين سنة - يوم ضاقت أبواب الرزق على العامة وتفتحت اعينهم بالتعليم أو الاحتكاك بالأجانب وفسدت حكومتهم وهم أهل نشاط واقدام فلم يصبروا على الضيم والفقر. فاخذوا فى المهاجرة إلى أمريكا واستراليا وغيرهما. وأكثرهم لا يملكون من أسباب النجاح إلا الهمة العالية والنفس الكبيرة والعزم الأكيد. فأفلحوا واكتسبوا الأموال الطائلة بالتجارة والطبابة والصحافة وغيرها وصاروا من خاصة الناس. وعاد بعضهم إلى بلده أو قريته وقد أصبح وجيها بعد أن كان خاملا. وتجد بين أولئك المهاجرين اناسا كانوا وهم فى قريتهم يشتهون التقرب من أميرها أو شيخها بالخدمة فى حقله. فاصبحوا

بعد هجرتهم وقد ابتاعوا ذلك الحقل وابتنوا فيه قصراً فخيما لم يبنِ ذلك الأمير مثله.

إن أمثلة أولئك الناجحين كثيرة فى سوريا وفلسطين. وفيهم طائفة حسنة لهم المتاجر الواسعة فى أوروبا وأمريكا وغيرهما. وقد أشرنا إلى ما شاهدناه من ذلك فى باريس ولندن ومنشستر فى الصيف قبل الماضى.

فلو عاد أولئك المهاجرون إلى وطنهم بأموالهم واختبارهم واقاموا للعمل فيه لعمرت البلاد ولم يبق محل للشكوى . ولكنهم لا يفعلون ذلك لأن أحوالنا السياسية لم تستقر بعد . وبعضهم جاء ولم يطل مقامه وآخرون ابتاعوا الأرض وابتنوا القصور ثم اضطروا إلى الرجوع . وفيهم من استقر ببلده مع بقاء تجارته فى المهجر . ومن هؤلاء كثيرون فى فلسطين عرفنا منهم بيت جاسر وجهاء بيت لحم . فقد رأينا قصرا بنوه هناك أنفقوا فى بنائه ٣٠٠٠٠ جنيه ولم يتم بعد. لكن تجارتهم لاتزال فى محلاتهم بباريس وغيرها من المهجر.

الثروة الطبيعية

على أننا إذا نظرنا إلى ثروة بلادنا الطبيعية كالعقار

ونحوه من حيث زرعها واستخراج معادنها وسائر خيراتها لرأينا البلاد غنية بنفسها لكنها تحتاج إلى العمل .

رأينا في طريقنا من القدس إلى نابلس ومنه إلى جنين فحيفا بقاعا كثيرة بينها سهول واسعة لم تبذل العناية في استغلالها إلا قليلا. ولا ريب أن إصلاح الري يضاعف غلتها. وما كان منها جبالا يمكن جعله غابات غضة ينتفع بأخشابها وأظلالها. كما فعلوا بجبل الكرمل بجوار حيفا. فإنه مكسو بالاشجار والغابات فيصح أن يكون مثالا لغرس سائر جبال فلسطين. وقد جرب الاهلون غرس بعض تلك الجبال زيتونا فيجدر بهم أن يجعلوا غرسه عاماً.

وقد يعترض بأن تلك الجبال صخرية لا ينابيع فيها ولا سبيل إلى ريها - وهو اعتراض وجيه إذا طلبنا غرسها حنطة أو قطنا. وانما نطلب غرسها اشجارا لا تحتاج إلى غير ما تجود به السماء في فصل الشتاء. على أننا شاهدنا في وادي اليرموك بين طبرية ودرعة شلالات تتدفق من قمم الجبال كالسيل وتنساب بين الصخور حتى تنصب في نهر اليرموك وتختلط بمائه. ومن هذه الشلالات زيزون وتل شهاب ينحدر ماؤهما كالزلال بين صخور جرداء . الا ما يمسه الماء منها

فقد كسته الخضرة. وكل شلال منها يمكن استخدامه لتدوير عدة مطاحن أو آلات تولد الكهرباء أو قوة اخرى تستخدم فى الحرث والغرس والحمل والنقل. إن منظرها البديع استوقف خاطرنا ولولا اضطرارنا لسرعة الانتقال مع القطار لوقفنا عندها نتمتع بمنظرها. فتخطيناها ونحن آسفون لضياع تلك المياه هدرا.

على أن وادى اليرموك نفسه الذى يجرى القطار الحديدى بجانبه بضع ساعات بين الأردن وحوران شاهدنا على ضفتيه بقاعا قلما يلتفت القوم إلى استغلالها. غير ما تسرح فيه الماشية للمرعى. وقد أذكرنا منظر تلك الجبال وما فيها من الماشية يسوقها الرعاة: وهم وهى والأرض لا تزال على الفطرة الطبيعية - ذكرنا ذلك بما نقرأه عن عرب الجاهلية وعاداتهم القديمة. فإن أولئك القوم أشبه شئ بما كان عليه العرب منذ بضعة عشر قرنا.

وناهيك بأمر آخر استلفت انتباهنا ولا عذر فى إهماله غير الجهل وفساد الحكومة. إن السهول الخصبة بين حيفا واليرموك مروجا وأغوارا أهمها مرج ابن عامر وغور بيسان. أما المرج فإنه سهل كثير الشبه بأرض مصر مساحته نحو

١٠٠٠٠٠ فدان ومساحة الغور نحو ضعفي ذلك. وهو من الجفالك التي كانت لعبدالحميد واستولت عليها الحكومة وتعرف بالمدورة . ولما كنا في حيفا بالصيف الماضي كان هذا الغور معروضا للبيع وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود . فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتا . وسكانه نحو ٢٠٠٠٠من الفلاحين والعرب وكلهم مسلمون. على أن بعض اغنياء الوطنيين ارادوا مشترى بعض أرض الغور وبعضهم احتكر بعض مناجمه. وقد ظهر فيه منجم لزيت البترول لا يزال العمل جاريا فيه وبلغنا أن فيه مناجم أخرى.

وقد هم غير واحد من أهل الثروة بمصر وغيرها لا بتياع بعض تلك الأرضين لانها رخيصة جدا بالنظر إلى أرض مصر، ويقدر الفدان الواحد ببضع جنيهات لو كان في مصر لبيع بستين أو سبعين جنيها. لكن في استغلاله مشقة لقلة الرجال وضياع الأمن بسبب العرب البدو. ولابد من تخطي هذه العقبة يوما من الأيام ويظهر فضل تلك الأرض . لكننا نخشى أن لا تأتي الساعة قبل فوات الفرصة بالنظر إلى الوطنيين لأن اليهود باذلون جهدهم في ابتياع أراضي

فلسطين حيثما تيسر لهم ذلك بكل وسيلة ممكنة بمساعدة الجمعية الصهيونية التى نكرنا تاريخها فى الهلال الثانى من هذه السنة فإنها وقفت الأموال الطائلة فى هذا السبيل .

المستعمرات اليهودية فى فلسطين

ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فإنهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها. ويعولون فى استعمارها على أحدث الطرق الفنية من حيث الغرس أو تشييد المنازل أو تنظيم الشوارع. شاهدنا فى يافا محلة أو مستعمرة إسرائيلية اسمها «تل أبيب» أدهشنا ما رأيناه فيها من نظام الشوارع وإتقان البيوت فى بنائها على الطراز الصحى. وحول المنزل أو بين يديه حديقة يحيط بها سور من شبك الحديد وشوارعها واسعة نظيفة. وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكنى اليهود وهى تؤجرهم إياها بطريق الاستهلاك بشروط سهلة. بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة. وقد أنكرتنا منازل تل أبيب بالمقاصف (فيلا) فى ضواحى مصر. وكانت هذه البقعة فى الأصل صحراء قاحلة. فابتاعتها تلك الشركة وبنتها وأخذت فى استثمار ما وراءها بغرس الكروم وغيرها.

وفى هذه المحلة مدرسة كلية (جمناز) تعلم العلوم العالية باللغة العبرانية سنعود إليها عند كلامنا عن الاحوال العلمية. ونكتفى هنا بالاشارة إلى سعى اليهود فى استعمار فلسطين. فقد اصبحت المستعمرات اليهودية فيها تعد بالعشرات بجوار يافا والقدس وحيفا وغيرها، منها ما بنى قرب المدن مثل تل أبيب ومنها ما هو من قبيل المغارس للكرم والبرتقال، غير المعامل لاستخراج الخمور أو صب الحديد وغير المدارس للزراعة والصناعة وغيرها.

وقد احصى بعضهم عدد هذه المستعمرات فى اليهودية والجليل والسامرة والأردن وما يليها فزادت على أربعين مستعمرة يختلف سكانها بين بضع عشرات إلى بضع مئات أو بضعة آلاف. وفيهم الوطنيون والألمان والروسيون والاسبان وغيرهم. تجمعهم جامعة بنى إسرائيل. ومما يستحق الانتباه أن أعمال هؤلاء المستعمرين فى منازلهم أو معاملهم أو مغارسهم أو مخازنهم مبنية على أحدث الطرق العلمية. فاصحاب مغارس البرتقان (البيارات) يتوخون فى غرس شجره أحدث الطرق الزراعية من حيث ترتيبه وترك المسافات بين شجيراته وسقيه وجنيه يستخدمون فى ذلك

الآلات التى تغنيهم عن العمال. ولذلك يستطيعون توريد غلتهم بأقل مما يستطيعه الوطني الباقى على الطراز القديم.

فحيثما رأيت بيتا جميلا مبنيا على الطراز الحديث ترجح لك أنه ليهودى. وإذا رأيت حديقة منظمة أو حقلا نظيفا فهو ليهودى - بخلاف ما اشتهر عن اليهود قديما فقد كانوا إلى أواسط القرن الماضى يقيمون فى أقذر الأحياء . ويضرب المثل بقذارة حارة اليهود . إن يهود فلسطين أبدلوا تلك الشهرة بضدها - قال لنا وجيه منهم التقينا به فى يافا لما رأى دهشتنا من ذلك التغيير «ظل اليهود أدهارا مضطهدين معتزلين لا يؤذن لهم بالإقامة مع سائر الطوائف فى حى واحد وأحياؤهم مضرب الأمثال بالقذارة. ونحن الآن معتزلون عن سوانا ولكن منازلنا نظيفة ومنازل جيراننا قذرة فلا نرضى أن يساكننا أحد منهم».

حكومة يهودية ضمن حكومة عثمانية

ولليهود فى مستعمراتهم هذه هيئة اجتماعية خاصة. لا يخالطون أحداً ولا يبايعون أو يستخدمون فى حاجاتهم غير أبناء جلدتهم. وفى بعض مستعمراتهم بريد خاص بهم له طوابع خيرية تنفق أثمانها فى سبيل البر ويلصقون فى داخل

المكتوب مثل ورق البول لهذا الغرض ومن طرقهم الاقتصادية في الإحسان أن الجمعيات الخيرية لها أوراق تباع عدة منها بأصغر قطعة من قطع النقود المعروفة. فمن أراد الاحسان الاقتصادى ابتاع مقدارا من هذه الأوراق وفرقها في الفقراء وهى مقبولة عندهم كالنقود . حتى القضاء فإنهم مستقلون به عن سائر الاهلين فاليهودى إذا اختلف مع يهودى آخر تقاضيا إلى الكاهن أو الشيخ وهو ينظر فى خصومتهم ويقضى لصاحب الحق . ولا يقتصر ذلك على الأحوال الشخصية كما يتبادر إلى الذهن فانهم يتقاضون إلى الكاهن فى كل مسألة تحتاج إلى مقاضاة حتى المسائل المالية. فإذا كان لأحدهم على آخر دين ماطله فى دفعه اشتكاه إلى الكاهن فيسمع الشكوى والدفاع ويحكم لصاحب الحق ويأمر المحكوم عليه بالدفع. فإذا لم يرض بالحكم ليس لهم قوة تنفيذية من الحكومة تجبره لكنهم يقاصونه قصاصا هو أشد وطأة عليه من السجن نعنى أنهم يقاطعونه - وذلك أن الكاهن يعلن الحكم فى معبدهم ويقول إنه حكم لى فلان الحكم الفلانى ولم يرضخ له ويوصى بمقاطعته فيصبح كالأجرب بين الأصحاء ليس من يخاطبه أو يبايعه أو يعامله. وهذا الأسلوب

من القصاص أرقى ما بلغ إليه جهد المتمدنين لأنه يرقى الإحساس الاجتماعي.

على أننا رأينا في يافا وأكثر مدائن فلسطين صبغة يهودية ظاهرة في أسواقها ومنازلها فتجد أسماء الصناعات أو المتاجر على الحوانيت أو المنازل في اللغة العبرانية . فضلا عن العربية والافرنجية. وهم يسمون غرف الفنادق باسماء آبائهم الأولين أو مدنهم القديمة فبدلا من الاكتفاء بالنمرة للغرفة يسمونها بنيامين مثلا أو يعقوب أو أريحة أو نحو ذلك .

مستقبل فلسطين لليهود

وبالجملة أن تغلب اليهود في فلسطين ظاهر ظهورا واضحا. فهم أصحاب الثروة ولهم أخصب المغارس وانظف الشوارع وأفخم المنازل. والوطنيون يرون ذلك ويشتكون والحكومة لا تحرك ساكنا لاشتغالها بنفسها أو بحروبها عن النظر في هذه الشئون . على أنها لو وجهت التفاتها إلى هذا الأمر لم يسهل عليها تبديله أو ملافاته لأن اليهود يبتاعون الأرضين بطرق قانونية شرعية لا جناح عليهم فيها حسب الظاهر. والحكومة في هذه الأيام لا تستطيع مصادرتهم أو منعهم من استثمار الأرض بأموالهم وعرق جبينهم . نعم إن

المرابين من اليـهـود يغـتنمـون ضـعف الفـلاح المدين لهم ويقبضون عقاره اذا قصـر عن الدفع. وهكذا يفعل سائر المرابين بمصر وغيرها من اليهود وغيرهم.

فيحق للعقلاء أن يشتكوا من هذه الحالة ويسعوا فى ملافاتها. غير أن ملافاتها لا تكون بمجرد الشكوى. وانما تكون بالنسج على منوال أولئك المستعمرين من حيث تعمير الأرض بالطرق العلميـة وانقاذ الفلاح من المرابى بالطرق المعقولة إما بإنشاء النقابات الزراعية أو نحو ذلك. ولو أرادت الحكومة النظر فى هذا الأمر لكانت أقدر من سواها على ملافاته. ولكنها مشغولة مضطربة واغنياء الوطنيين والطبقة الراقية منهم أكثرهم منصرفون إلى المسائل السياسية والتنازع على الوظائف أو النيابات أو المطالبة بالإصلاح. ولو صرفوا ذكاءهم وهمتهم إلى الوجهة الاقتصادية بملافاة صيرورة بلادهم ملكا لسواهم لكان ذلك أقرب إلى الوطنية وأدنى إلى الاستقلال الحقيقى.

وقد اختلف الباحثون فى مستقبل سوريا وفلسطين : هل تنالان الاستقلال الإدارى أم تبقيان على حالهما أم تدخلان فى حماية دولة أجنبية أم غير ذلك من الأوجه السياسية

الداخلة ضمن دائرة الإمكان. وكلها تحتمل الشك وتقبل النقض. وأما ما لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد أن الحال إذا ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأراضين واستعمارها وأهلها غافلون أو متجاهلون وحكومتها ساكتة أو مشغولة - فلن يمضى زمن طويل حتى تصير كلها لليهود . ولا عبرة فى من يتولى شئونها السياسية ولا فرق أن تكون يومئذ فى سلطة العثمانيين أو العرب أو الفرنساويين أو الإنكليز . فإن العبرة فى من يملك الأرض ويستولى على غلتها وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد ذلك الملك لصاحبه. سواء كان مسلما أو نصرانيا أو يهوديا . وقد مضى الزمن الذى كان الفاتحون فيه يتملكون البلاد التى يفتحونها أو يستعبدون أهلها.

واعتبر نحو ذلك فى المستعمرات الألمانية فى يافا وغيرها أهمها سارونا وولهلما وغيرهما. والألمان كاليهود من حيث استقلالهم بالمنافع الاقتصادية لأنفسهم فلا يبتاعون حاجاتهم إلا من الألمان وفى أيديهم تجارة اللبن ولهم مغارس ومعامل وغيرها.

فبراير ١٩١٤
أجناس أهل فلسطين

يقسم سكان فلسطين من حيث الجنس إلى وطنيين وأجانب . فالوطنيون هم : العرب والسوريون واليهود – وإليك البيان:

١ - العرب

فالعرب نريد بهم القبائل العربية التى لاتزال محافظة على أنسابها وعاداتها العربية. وهم طبقتان : البدو والحضر، فالبدو مثل سائر العرب الرحل ينتقلون بمضاربهم وأنعامهم إلى حيث يطيب لهم المرعى أو يأمنون الغزو . وأشهر هذه القبائل الآن بنو عنزة ويقسمون إلى أربع قبائل : ولد على والحصنة والرولا وبشر. ويقدر عددهم بنحو ٣٠٠٠٠ نفس . ومن البدو فى فلسطين الغزاوية والصقر فى سهل مرج ابن عامر يسطون على مزارع الناس وينهبونها – ووجودهم هناك بعث على إهمال زراعة كثير من تلك الأراضين. ويقدر عددهم بنحو ٢٠٠٠ نفس.

وأما الحضر وهم العرب المقيمون فيشتغلون بالزرع منهم

الغوارنة نسبة إلى غور بيسان. ومن بنى صخر طائفة من الحضر أيضا يقيمون فى مواب.

٢ - السوريون

نريد بالسوريين من تعرب من سكان سوريا وفلسطين بعد الإسلام. وهم طبقات يصعب تمييزها والتفريق بينها وبين بقايا سكان تلك البلاد الاصليين. لكننا رغبة فى الايضاح نقسمهم إلى الأقسام الآتية :

أولا : بقايا سكان تلك البلاد الاصليين من السريان والاراميين وغيرهم من الأمم التى توطنت سوريا وفلسطين قبل الاسلام وتعربوا بتوالى الاجيال تحت سلطة العرب .

ثانيا : بقايا قبائل العرب التى نزلت فلسطين عند الفتح الاسلامى أو بعده وتناسلت فيه. وهؤلاء طبقتان : الأولى المسلمون أهل البيوتات الذين لا يزالون محافظين على أنسابهم. ومنهم الاشراف الذين ينتسبون إلى بيت النبى أو إلى بعض الصحابة . ومنهم من ينتسب إلى بعض الأمراء والحكام من حوران أو غيرها. فالأشراف فى فلسطين :

١ - بيت الحسينى : نسبة إلى الحسين بن على ، أشهرهم بيت الحسينى فى القدس وغزة. وهم ينسبون إلى جدهم

السـيـد بدر المشـهـور بالسلطان بدر المتـوفى سنة ٦٥٠هـ المدفون فى الزاوية الواقعة بوادى النسور فى ضواحى القدس . وأول من استوطن بيت المقدس من أولاد تاج الدين أبوالوفاء محـمـد البـدرى سنة ٧٨٢هـ وتوفى سنة ٨٠٣هـ وهو الجـد الجـامع للعـائلة الحـسـينيـة بالقـدس وبيت السـادة الوفـائيـة بمصـر. وعـدد الحـسـينية فى القـدس نحـو ١٤٠ من الذكور. ومنهم طائفة من أصحاب الوجاهة والنفوذ والعلم .

٢ - بيت السـعيد فى يافا : يتصل نسـبهم بإدريس الكبير بن عبدالله من سـلالة الحسن بن على . وأول من نزل فلسطين منهم «أبوالنصـر» جاءها منذ سـتة قرون ونزل حـجة بجـوار نابلس وتكاثر نسله هناك فتفرقوا فى فلسطين واشـتهر منهم «دهيس» بين أهل البادية فى القرن الثامن عشر . وعرف هذا الفـرع بأسـرة دهيس . واشـتـهـر من أحـفـاده سـعـيـد بك بن مصطفى بن عثمان بن دهيس . وتولى حكومة القدس وغيرها تحت ولاية عـبدالله باشا صـاحب عكا وحارب بـاسـمـه مرارا ودافع مـعـه عن عكا لما حـاصـرها إبراهـيم باشـا وتوسط فى الصلح بينهما . فولاه إبراهـيم غزة فكان له عونا فى إخماد ثورة القـدس وغيرها. وهو والـد حـافظ بك السـعيد وجيـه يافا ونائبها فى مجلس المبعوثين السابق .

٣ - بيت العلمي : ينتسبون إلى الحسن بن على ومنهم جماعة من العلماء فى القدس وغيرها .

٤ - بيت الخالدى : ينتسبون إلى خالد بن الوليد الصحابى الفاتح الشهير . وقد نبغ منهم طائفة من العلماء والوجهاء .

أما البيوتات أو العشائر التى تنتسب إلى الأمراء أو غيرهم من أهل الوجاهة فأشهرهم :

١ - بيت عبدالهادى : أصل هذه العشيرة من القسطل فى البلقاء ونزحوا منها بمن لحق بهم من أهلهم وأعوانهم إلى جبل نابلس منذ نحو ثلاثة قرون فنزلوا قرية «عرّابة» وتفرقوا منها فى نابلس وجنين والناصرة وغيرها. وهم أصحاب الكلمة العليا فى تلك الجهات ولهم ثروة ووجاهة ومنزلة رفيعة .

٢ - بيت جرار : هم من أقران بيت عبدالهادى نزحوا معهم من القسطل إلى جبل نابلس فنزلوا قلعة صانور منذ ثلاثة قرون. وهم من خيرة وجهاء نابلس .

٣ - بيت طوقان : وهم عشيرة كبيرة فى بلاد نابلس ينتسبون إلى مشرف من آل بكر بن وائل - هكذا فى الروض البسام صفحة ٢١.

والطبقة الثانية من العرب المسلمين في فلسطين ضاعت أنسابهم بتوالي الأجيال وأكثرهم من العامة ومنهم طائفة من أهل الوجاهة والثروة والعلم.

ثالثا : العرب النصارى الذين انتقلوا من حوران أو غيرها في أزمان مختلفة واندمجوا في أهل البلاد . وبعضهم لا يزالون إلى الآن يرجعون بانسابهم إلى أجدادهم من غسان أو غيرهم.

رابعا: المستعربون من جالية الافرنج بعد الفتح الاسلامي من اليونان والايطاليين وغيرهم. وناهيك بمن خلفهم من الصليبيين على إثر إقامتهم الطويلة فيها. ولا تزال آثار ذلك ظاهرة في ملامح الفلسطينيين واسمائهم إلى الآن. وهذا غالب في النصارى وخصوصا في القدس وما يجاورها. وبنوع أخص في أهل بيت لحم فإن ملامحهم قريبة جدا من ملامح الافرنج . وأردنا تحقيق ذلك فبحثنا عن انساب العائلات الشهيرة هناك فلم نعثر على سجلات أو تقاليد تؤيد ذلك بعد ولا نزال نوالي البحث .

خامسا : المستعربون من الاتراك والجركس والافغان والأرمن وغيرهم من الأمم الشرقية التي نزلت تلك البلاد وتوطنتها بعد الاسلام وأكثرهم من المسلمين.

٣ - اليهود

هم أقدم الأمم الفلسطينية الباقية إلى الآن. ولهم فى موضوعنا شأن خاص لما هم ساعون فيه من أمر الصهيونية واستعمار فلسطين. وعددهم الآن هناك نحو ٧٨٠٠٠ أكثرهم فى القدس ويافا. وهم طبقتان : اليهود الوطنيون الذى ظلوا فى بلدهم بعد السبى. واليهود الغرباء الذى عادوا إليه فى العهد الأخير. وهؤلاء أكثر عددا من أولئك وقد فصلنا سبب نزوحهم فى مقالة الصهيونية فى الهلال الثانى من هذه السنة.

وتقسم جالية اليهود فى فلسطين إلى صفارية واشكنازية والصفارية عددهم ٤٥٠٠ نفس أكثرهم يمنية ومغاربة ومنهم جماعة من جالية كردستان وبخارى والعراق.

وأما الاشكنازية فإنهم أكثر كثيرا ومنهم فى القدس وحدها نحو ٤٠٠٠٠ نفس ولكل من هذه الجماعات عادات خاصة وأخلاق خاصة فضلا عن الاخلاق اليهودية الأصلية .

وأما الأجانب فى فلسطين فنريد بهم الأمم التى تقيم فيها ولاتزال محافظة على جنسياتها. وفيهم الافرنج على اختلاف البلاد واللغات وأهل المشرق الاتراك والأرمن والأفغان والكرج وغيرهم.

أديان أهل فلسطين

فى فلسطين أمثلة من أديان شتى أشهرها المسلمون والنصارى واليهود والسامريون . والمسلمون أكثر عددا من سائر الطوائف يليهم النصارى ثم اليهود وأخيرا السامريون.

والمسلمون يشبهون مسلمى مصر والشام من أكثر الوجوه ولا حاجة إلى الكلام عنهم من جهة الدين. وإنما نقول بالإجمال إنهم مادة البلاد ووجهاؤها وأصحاب الثروة والنفوذ فيها.

أما النصارى فيختلفون عن نصارى مصر بكثرة مذاهبهم وتعدد طوائفهم حول القبر المقدس. ففيهم اللاتين والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك والسريان والأرمن واليعاقبة والموارنة والنساطرة والقبط والانجيليون وغيرهم. وعددهم فى متصرفية القدس نحو ٥٠٠٠٠ نفس. واليهود تقدم الكلام عليهم.

بقى أن نقول كلمة فى السامريين وهم يستلفتون انتباه الباحث الاجتماعى لأنهم بقية أمة قديمة ذاهبة إلى الفناء - لم تخالف سنة الاجتماع ولا استطاعت تجديد شبابها ومغالبة الأيام كما فعل اليهود.

السامريون أو السمرة
أصلهم وتاريخهم

بين يدينا تاريخ للسامرة مخطوط دفعه إلينا الكاهن يعقوب بن هارون رئيس كهنة السامريين الآن. وقد جاء فيه أن السامريين هم اليهود الأصليون وينتسبون فى أصل أرومتهم إلى يوسف الصديق إلا كاهنهم فانه ينتسب إلى لاوى .

ويعتقدون أن اليهود انشقوا عنهم وخالطوا الأمم الأخرى .

ولكن أهل البحث يرون أن السامريين ليسوا يهودا ولا من أصل يهودى . وأنهم سموا بهذا الاسم نسبة إلى ارض السامرة في فلسطين. وفى حقيقة أصلهم أقوال أشهرها أنهم من بلاد فارس من بلدة كانت تسمى كوتا. وخلاصة ما قيل فى هذا الموضوع أن أحد ملوك أشور سطا على فلسطين فى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد واكتسح السامرة واستخرج اليهود منها. ومازالت السامرة خالية من السكان حتى جاء ملك آخر منهم فملأها بقوم حملهم إليها من بلاده وإليك ما ورد فى سفر الملوك الثانى (ص١٧ - ٢٤) «وأتى ملك أشور بقوم من بابل وكوتا وعوا وحماة وسفروائيم وأسكنهم فى مدن السامرة مكان بنى إسرائيل فملكوا السامرة واستوطنوا

مدنها» والمظنون أن الملك الذى نقلهم هو أسرحدون. وكانوا فى أول أمرهم يعبدون الأوثان وهم خمس قبائل تعبد كل منها صنما حملته معها من بلادها - قال يوسيفوس «والكوتيون جاءوا فى بادئ الرأى من أقصى بلاد مادى وفارس ثم دعوا سامريين نسبة إلى السامرة التى انتقلوا إليها» ثم قال «وهم يسمون بالعبرانية كوتيين وباليونانية سامريين» على أنهم كانوا يحاولون الانتساب إلى اليهود تزلفا إليهم أو تشرفا بأصلهم واليهود يتبرءون منهم . ويظهر تبرؤهم جليا من مراجعة الاناجيل فإنها تدل على ذلك دلالة صريحة فى أماكن كثيرة .

وللسامرة تاريخ يمكن استخراجه من ثنايا التوراة . وأما بعد زمن التوراة فتاريخهم تابع لتاريخ بلادهم . وقد لاقوا اضطهادا كثيرا من الرومانيين وغيرهم. ويؤخذ من رحلة بنيامين التودلى فى القرن الثانى عشر للميلاد أن السامريين كان عددهم نحو ألف نفس فى فلسطين. ومازالوا يتناقصون إلى الآن . فقد أخبرنا الكاهن يعقوب المشار إليه أن عددهم لا يتجاوز ١٧٥ نفسا ويظهر أنهم صائرون إلى الفناء لأسباب اجتماعية اقتصادية كما يتضح مما يلى :

أحوال السامريين الآن

لم يبق من السامريين الآن غير المقيمين فى نابلس عند سفح جبل جرزيم فى حى خاص بهم. ولهم كنيسة تعرف باسمهم يظهر القدم عليها. وعددهم جميعا ١٧٥ نفسا منهم ٩٨ من الذكور و٧٧ من الإناث. ومن الذكور الآن نحو ٣٠ شابا في استعداد للزواج وليس بين الاناث فى محل الزواج إلا ثلاث بنات. فهذا سبب طبيعى لقلة النسل . ولو أراد هؤلاء الشبان التزوج من غير السامريين لا يجدون من يزوجهم لا من اليهود ولا النصارى ولا المسلمين ولا غيرهم . ولذلك قلنا إنه قد حكم عليهم بالزوال .

ويؤيد ذلك سوء حالتهم الاقتصادية فإنهم في غاية الفقر ليس فيهم من يملك قرية أو يتعاطى تجارة. وقد غلبتهم الديون فإذا كان لأحدهم بيت كان عليه من الدين ضعف قيمته. أخبرنا كاهنهم أنه كان لهذه الطائفة نحو ٤٠٠ فدان من الأرض تستغلها غرقت فى الديون واستولى عليها أصحاب الدين.

وقد تولاهم الخمول الذى يستولى على الأمم فى شيخوختها فلا تجد فيهم من يشتغل للمستقبل. لا مطامع ولا

همة ولا إقدام أو نشاط. وليس بينهم من أهل الصناعة إلا خمسة نجارين وخمسة خياطين وبعض الباعة . وإنك ليدهشك ما تقرؤه على وجوه القوم من اليأس ولاسيما أهل التفكير منهم فإنهم يتوقعون زوال هذه الأمة بحكم الطبع ويتساءلون عما ينجيهم من ذلك فلا يجدون من يأخذ بيدهم.

ومع ذلك فإنهم شديدو التمسك باعتقاداتهم لا يتنازلون عن حرف منها . أهمها أن جبل جرزيم هو الجبل المقدس كما يقول اليهود عن جبل موريا. وأن خيمة الاجتماع وتابوت العهد وسائر الآنية المقدسة مدفونة في جبل جرزيم. وهم يحجون إلى ذلك الجبل في أعيادهم الثلاثة التي يحج فيها اليهود إلى القدس. وهي عيد الفصح وعيد العريش وعيد الاسابيع. ويذبحون خروف الفصح على ذلك الجبل. وهم يتوقعون مجيء المسيح متى تمت ستة آلاف سنة من الخليقة. ولهم أدلة كثيرة وأبحاث طويلة في هذا الشأن . يتكلمون اللغة العربية مثل سائر أهل نابلس . لكنهم يكتبون ويصلون باللغة السامرية هي اللغة العبرانية نفسها تكتب بأحرف خاصة هي الأحرف السامرية المتفرعة من القلم الفينيقي وبها يكتبون توراتهم وسائر كتبهم (انظر الصفحة التالية) .

وليس للسامريين آداب خاصة تستحق الذكر . وأكثر كتبهم صلوات ودعوات وأبحاث لاهوتية فى مناقشة اليهود من حيث صحة اعتقادهم . وعندهم كتب تاريخية قليلة ليس بينها ما تتجاوز كتابته القرن العاشر للميلاد وقد لخصها الكاهن يعقوب هذا فى تاريخ عام استنسخناه وقد أشرنا إليه فى ما تقدم . لكنه محشو بالمسائل الدينية وكثير من الخرافات. وفيه نصوص من التوراة نقلها بحرفها السامرى ومعناها العربى . وفي آخره نسب الكاهن المشار إليه. ولغة التاريخ سقيمة وربما نشرنا ملخص هذا التاريخ فى فرصة أخرى . وكان للسامريين أدب وشعر نحو شعر التوراة كالمزامير ونحوه لم يبق منه إلا القليل وقد تشوهت لغته وأسلوبه وحروفه.

التوراة السامرية

هى أهم آداب لسانهم وتعرف بالتوراة السامرية ، وهى عبارة عن الأسفار الخمسة الأولى ولا يعتبرون سواها من الاسفار. وهى كالأسفار الخمسة التى لليهود فى اللغة العبرانية نفسها لكنها مكتوبة بالحرف السامرى - وإنما تختلف عن التوراة العبرانية فى بعض النصوص من حيث أعمار الآباء ونص بعض الوصايا وغير ذلك نحو ما تختلف

عنها الترجمة السبعينية وقد طبعت التوراة السامرية فى لندن قديما.

ومن هذه التوراة نسخ قديمة في متاحف أوروبا مخطوطة على رقوق أو جلود. أقدمها كلها نسخة في شكل درج محفوظة في كنيس السامريين في نابلس لا يطلعون عليه أحدا إلا في ظروف مخصوصة. وأما ما يذكره السياح عن التوراة السامرية القديمة فيريدون به نسخة أخرى أحدث منها عهدا يقولون إنها كتبت منذ عشرين قرنا وأما تلك فانهم شديدو الحرص عليها يتسلمها كهنتهم للمحافظة عليها. ولهم ضرائب على الشعب في سبيل هذه المحافظة. لأنهم يتبركون بها إذ لم يبق من ذخائرهم الدينية سواها. والكهنة يتوارثون الكهانة ويتوارثون معها حق المحافظة على هذه التوراة. آخرهم الكاهن يعقوب بن إسحق المتقدم ذكره. ويعتقدون أنها كتبت بعد موسى بقليل كتبها أبيشع بن فنحاس بن اليعازر بن هارون الكاهن. وقد رأيناها موضوعة في صندوق عليه نقوش وهي ملفوفة بغطاء من الحرير الأخضر مطرز الحواشي. وقد تلطف الكاهن يعقوب بإخراج هذا الكنز الثمين من مخبئه وأطلعنا عليه وطلب إلينا إبداء رأينا في قدم عهده.

والتوراة المذكورة مكتوبة على رق في شكل درج ينتهى من طرفيه بعمودين يلف عليهما الدرج من الطرفين. وإذا أرادوا قراءة فصل منها أداروا العمودين حتى ينكشف المراد قراءته – غير عمود ثالث في الوسط . وقد تأملنا هذا السفر جيدا وقرأنا تاريخ كتابته فى آخره – على عادة السامريين فى تاريخ ما يكتبونه. ولهم فى ذلك طريقة لا يخشى معها التزوير أو التحوير .

وذلك أنهم يقتطعون حروفا من عبارة التوراة نفسها – يستفردون من كل سطر حرفا أو حرفين يجعلونها متناسقة فى خط واحد في منتصف الصفحة تنقسم به الصفحة إلى حقلين وبينهما عمود مؤلف من الاحرف المقتطعة يفعلون ذلك فى عدة صفحات أو عدة فصول من الكتاب المراد تاريخ كتابته بحيث يجتمع من تلك الأحرف حسب ورودهما فقرة تشتمل على اسم الكاتب وسنة الكتابة ومكانها ونحو ذلك . فهذه الطريقة لا يُخشى وقوع التزوير فيها. لأن كل حرف من الحروف المقتطعة يؤلف جزءا من الكلمة التى اقتطع منها . فإذا أبدل بحرف آخر ظهر ذلك بما يحدث من التشويش أو النقص فى تلك الكلمة أو فى سياق الكلام.

والاحرف المقتطعة لتاريخ هذه التوراة تتألف منها فقرة هذه ترجمتها العربية : «أنا أبيشع بن فنحاس بن اليعازر بن هارون الكاهن عليهم رضوان الله وإجلاله كتبت هذا السفر المقدس فى باب خباء المحضر بجبل جرزيم فى سنة ثلاث عشرة لدخول بنى إسرائيل أرض كنعان على حدودها دائرا أحمد الله».

وقد تأملنا أحرف هذه الفقرة فى الأصل جيدا فلم يظهر لنا فيها بالعين المجردة كشط ولا اضافة . على أن هذا لا يمنع حدوث ذلك وظهوره تحت الميكروسكوب أو بالفحص الكيماوى - وإن كنا نرجح سلامة هذا النص من التلاعب. فإذا صح ذلك وجب أن يكون هذا السفر قد كتب منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة . فتكون هذه النسخة أقدم مخطوطات العالم على الاطلاق. إذ ليس بين مخطوطات المتاحف على الرقوق أو الجلود ما يتجاوز تاريخ الميلاد. وقد تباع لذلك بثمن يكفى للنهوض بهذه الأمة الهرمة وتجديد شبابها.

ويرى السامريون أن هذا التاريخ لا يقبل الاعتراض وقد أكد لنا الكاهن يعقوب أن بعضهم ساومه على ابتياع هذه التوراة بعشرات الألوف من الجنيهات. فلم يبعها احتفاظا

بهذا الأثر المقدس الذي سلم إليه من أجداده. فلا يريد أن يفرط فيه . وحسن اعتقاده وأمانته أبقيا هذا السفر إلى الآن. فاذا خلفه كاهن ضعيف الايمان باعه وهو البقية الباقية من جامعة تلك الأمة فإذا ذهبت انفرط عقدها وقضى عليها.

وفى رأينا أن هذا السفر لا يمكن أن يكون عمره ثلاثة آلاف سنة للاعتبارات الآتية :

١ - أن الرق المكتوب عليه لا يصبر على البقاء هذا الدهر الطويل . وبينه وبين أقدم أثر خطى معروف بضعة عشر قرنا.

٢ - ان أحرف هذا السفر فى غاية الانتظام والتناسب كأنها كتبت منذ بضع مئات من السنين . والحرف السامرى تفرع عن الحرف الفينيقى وتدرج فى الانتظام والتناسب بمرور الاجيال عملا بسنة النشوء . فلا يتكامل تكونه إلا بعد عدة قرون. مع أن الحرف الفينيقى نفسه لم يوجد قبل ذلك التاريخ بكثير . وشأننا فى ذلك شأن من يأتينا بأثر عربى مكتوب بخط فارسى جميل ويقول إنه كتب قبل الاسلام أو عند ظهور الاسلام فنحكم حالا أنه مزور لعلمنا أن الخط العربى لم يصل إلى هذا الشكل إلا بعد أن مر عليه نحو ألف سنة .

فلا نصدق القائل ولو كان صادقا ولكننا نبحث عن سبب وقوع هذا التناقض .

فالتوراة السامرية التى نحن فى صددها إذا لم يظهر فيها بالبحث الميكروسكوبى أو الكيماوى تلاعب ثبتت لنا سلامتها من التزوير . فنعلل قدم هذا التاريخ فيها إنها منسوخة عن أصل قديم كتبه حفيد هارون الكاهن كما قال . فلما نسخه الناسخ حافظ على نص قوله تماما. وهذا كثيرا ما يقع في نسخ الكتب ويلتبس على الباحثين أن يعينوا زمنها ولكنهم يستعينون غالبا بشكل الخط لأن لكل عصر شكلا منه. وفي كل حال فإن هذه النسخة من أقدم الآثار المخطوطة فى العالم.

خامسا - أحوالها العلمية

التعليم على الاجمال ضعيف فى فلسطين مثله فى معظم المملكة العثمانية. بل هو فى فلسطين أضعف مما فى سواها. ويصدق ذلك على المدارس الوطنية الأميرية وغير الأميرية. ونخص الكلام بالقدس لانها أرقى سائر مدائن فلسطين فى التعليم. وليس فيها من المدارس الكبرى الوطنية إلا المدرسة الدستورية لخليل افندى سكاكينى ومدرسة روضة المدارس

للشيخ محمد الصالح الحسينى ومدرسة اعدادية للحكومة. وكلها تشبه المدارس الابتدائية عندنا. وقس على ذلك سائر مدارس فلسطين الوطنية. وليس فى فلسطين مدرسة كلية وطنية. أما الأجانب فلهم فى فلسطين مدارس كبرى لتعليم أهل تلك البلاد وتثقيف عقولهم - هاك أهمها فى القدس:

١ - دار الأيتام السورية: أسسها الدكتور شنيلر الألمانى سنة ١٨٦٠ بجده واجتهاده. قضى أهم سنى حياته فى هذا المشروع يدبر شئونه رغبة فى عمل الخير. وقد جمع له المال من المحسنين بألمانيا وأمريكا وروسيا وسويسرا وأنفقها كلها فى إنشاء هذا المعهد العلمى الخيرى لتعليم الايتام الذين ليس لهم من يعولهم. وقد نجح نجاحاً عظيماً وأتى بأثمار حسنة وتخرج فى هذه المدرسة مئات من الشبان والشابات وفيهم طائفة من العميان. وقد تعلموا اللغات أو بعض الصنائع وضمنوا لانفسهم أسباب الرزق.

وقد اتسعت هذه المدرسة وتعددت فروعها وأبنيتها وفيها معامل للخزف ومصانع الحدادة والكراسى والنجارة وغير ذلك. وفيها قسم داخلى وآخر خارجي. وعدد تلاميذها نحو ٧٥٠ تلميذاً منهم ٤٠٠ داخليون. ونحو خمسين فتاة. وعدد

العميان فيها نحو ٥٠ أعمى. وعدد المعلمين نيف وأربعون معلماً منهم ٢٣ لتعليم العلوم واللغات و٢٢ لتعليم الصناعات.

٢ - مدرسة جوار للانجليز: يديرها أسقف إنجليزي اشتهر بفضله وتفانيه في تربية الناشئة. وهى من أحسن المدارس لتعليم اللغة الانجليزية وآدابها. وقد تخرج فيها طبقة من الأدباء بعضهم جاء مصر واشتغل فيها.

٣ - مدرسة صهيون وهى انجليزية أيضاً وتخرج فيها كثيرون.

وهناك مدارس أخرى لسائر الطوائف النصرانية. لكن أكثرها صغيرة لا تستحق الذكر هنا. وبلغنا أن الآباء اليسوعيين قرروا إنشاء كلية فى القدس على نسق كليتهم فى بيروت.

مدارس اليهود

لليهود شأن خاص فى فلسطين من حيث التعليم مثل شأنهم فى الاقتصاد وأسباب المعاش. واليهود فى هذا العصر ينافسون الأمم الأخرى بأقوى عوامل المدنية وأهم أسباب النجاح. نعنى المال والعلم والاتحاد. أما المال فهم مشهورون باقتدارهم على جمعة واحرازه من قديم الزمان. وهم يبذلونه

الآن في سبيل مطامعهم الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين. ويبذلونه أيضاً في سبيل التعليم. واما الاتحاد فإنه عماد أعمالهم كما رأيت في ما تقدم عن الجمعية الصهيونية وغيرها. ونقتصر هنا على الكلام في التعليم.

لليهود مدارس كثيرة في فلسطين ليست لسواهم بعضها على النسق القديم تعلم التوراة والتلمود والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة. فالمدارس القديمة منها في القدس وحدها عشرات عدد معلميها ٢٠٠ معلم وتلاميذها نحو ٤٠٠٠ تلميذ وكلهم يهود. ومنها خارج القدس نحو عشرين مدرسة أكثرها في يافا عدد معلميها كلها ٥١ معلماً وتلاميذها ١٤٠٠ طالب.

كلية تل أبيب

أما مدارسهم العصرية التي تعلم العلوم الحديثة فأول من أنشأها لليهود «جمعية الاليانس» في فلسطين. فيها كلها نحو ٢٠٠٠ تلميذ وهناك مدارس أخرى لجمعيات أخرى أو بعض الأفراد لا محل لها هنا. نكتفي بذكر المدارس الكبرى في القدس أشهرها مدرسة الاليانس المتقدم ذكرها. ومدرسة بيت ساليل ومدرسة لاميل وغيرها. وحسبنا وصف مدرسة تل أبيب في يافا لبيان مبلغ تقدم اليهود في فلسطين عن سائر أهلها من حيث التعليم.

زرنا هذه الكلية فى محلة تل أبيب فى يافا. فأدهشنا منها أمور لم نكن نتصورها ولا خطرت ببالنا من قبل - أدهشنا أولاً أنها مدرسة كلية كبرى ويسمونها لذلك (جمناز) تعلم العلوم العالية الطبيعية والرياضية فضلاً عن التاريخ والجغرافية والآداب. وتعلم اللغات العبرانية والفرنساوية والتركية والعربية. وفيها المعارض والمعامل للطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعى والتصوير. وليس فى يافا ولا القدس ولا سائر بلاد فلسطين مدرسة كلية من هذا النوع لا فى العربية ولا غيرها.

وأدهشنا ثانياً أن هذه المدرسة تعلم العلوم باللغة العبرانية. كما تعلم المدرسة الكلية الأمريكية فى بيروت بالانجليزية ومدرسة الآباء اليسوعيين بالفرنساوية. أى أن مدرسة تل أبيب هذه تعلم الطبيعيات والكيمياء والرياضيات والتاريخ وسائر العلوم العالية باللغة العبرانية فقط. ويزيد دهشتنا أن هذه اللغة بعد أن أوشكت تعد من اللغات الميتة أحياها أصحابها وجعلوها أقرب إلى الحياة العلمية من اللغة العربية! إذ ليس فى العالم العربى اليوم مدرسة كلية عالية تعلم العلوم والفنون باللغة العربية فقط - إلا الجامعة المصرية

وهى لا تزال فى أول نشأتها. وهناك كليات في بيروت ولبنان تعلم أكثر علومها بالعربية لكنها أقل درجة من هذه الكلية.

وقد تفقدنا كلية تل أبيب فأطلعنا رئيسها على ما فيها من المعارض والمعامل والألعاب الرياضية. وشاهدنا فى قاعة الجغرافية الخرائط وعليها أسماء البلاد والأنهر والجبال باللغة العبرانية. وطلبنا إليه أن يطلعنا على بروغرام المدرسة فدفع إلينا بروغراماً مطبوعاً باللغة العبرانية. وسألناه عن طريقة التعليم فيها وهل هى خاصة باليهود فاجاب مبتسماً «إنها عمومية لا ترد طالباً مهما يكن دينه أو جنسه لكنها تشترط عليه أن يكون متمكناً من اللغة العبرانية وآدابها ليتعلم العلوم بها». فأجبناه «إن هذا الشرط أدنى إلى مصلحتكم من الرفض لأن من يدخل مدرستكم على هذا الشرط من غير اليهود لا يلبث أن يكون قريباً منكم. لأن من يتعلم آداب قوم يحسن الظن بهم» فضحك ولسان حاله يقول «قد أصبت غرضنا».

وقد علمنا أن هذه المدرسة تحت رعاية الجمعية الصهيونية لكنها لم تكن هى التى شرعت فى إنشائها. وإنما أنشأها رجل إسرائيلى غيور على أمته. فلما نجح مشروعه كانت

الجمعية الصهيونية قد أخذت بناصر اليهود فعرضت عليه أن يجعل هذه المدرسة تحت رعايتها لتساعدها بالمال عند الحاجة فأجابها.

فكلية تل أبيب مثال لحياة الأمة اليهودية ونهضتها العلمية والاجتماعية بإحياء اللغة التى كان يتكلمها آباء التوراة فى ابان مجدها. وهو درس نوجه إليه أنظار طلاب الاصلاح من العرب وغيرهم - أن الأمة لا تحيا إلا بحياة لغتها ولا تحيا اللغة إلا بكثرة ما فيها من المؤلفات العلمية الراقية. وأكبر الوسائل المؤدية إلى ذلك أن تكون هى لغة التعليم فى المدارس الكبرى.

اللغة العبرانية والفنون الجميلة

ولم يقتصر سعيهم فى إحياء لغتهم على جعلها قاعدة التدريس فى هذه المدارس. لكنهم أحيوها بنقل الفنون الجميلة إليها. ففى تل أبيب مدرسة للموسيقى تعلم الموسيقى الحديثة فى اللغة العبرانية. وليس فى العالم العربى حتى الآن مدرسة للموسيقى تعلم فى اللغة العربية. غير ما عزم عليه بعض محبى الموسيقى بالإسكندرية من إحياء هذا الفن. وفى يافا جماعة من اليهود غواة التمثيل ألفوا جوقاً يمثل الروايات

التاريخية ونحوها فى اللغة العبرانية أيضاً. ولا يمضى زمن حتى ينبغ من الناشئة اليهودية من ينظم الشعر بلغة موسى وداود وسليمان فتتم به حياتها.

كليات يهودية أخري

وكلية تل أبيب مثال لكليات اليهود. وليست هى الوحيدة من نوعها فإنهم أخذوا ببناء كلية مثلها فى حيفا منذ سنتين بمال الجمعية الصهيونية. وستكون تحت رعاية ألمانيا وهى التى ساعدت الجمعية حتى نالت الإذن الشاهانى بإنشائها. ويقدرون النفقات اللازمة لهذه المدرسة بمائة ألف جنيه. وقد اختلفوا فى لغة التدريس الرسمية لهذه المدرسة. فالجمعية الصهيونية تريد أن تكون اللغة العبرانية وأما الألمان فيريدون أن تكون الألمانية. وقررت الجمعية الصهيونية فى مؤتمرها الأخير فى العام الماضى إنشاء كلية أو جامعة فى القدس ستكون أعظم الكليات اليهودية فى العالم. وستعلم كل فروع العلم الحديث وفنونه باللغة العبرانية. وفى عزم اليهود أن يجعلوا هذه اللغة قاعدة التدريس فى أكثر مدارسهم الصهيونية وغيرها.

ناهيك بما أنشـئـوه من المدارس الفنيـة فى فلسطين خصوصاً الزراعية. أهمها مدرسة الزراعة فى ضاحية يافا وهى عبارة عن عدة بساتين فى وسطها مدرسة ومعمل للخمور. أسسها رجل اسمه نيتر فيها اليوم ٦٥ طالباً من الذكور والإناث يتعلمون الزراعة العلمية وهى تقبل غير اليهود لكن يندر أن يجيئها أحد من الطوائف الأخرى.

طبقات الأمة والتعليم

على أن الميل إلى التعليم ينتشر الآن فى طبقات الأمة الفلسطينية . ولاسيما الطبقة الراقية . فمن لا يكتفى بتعليم أبنائه فى المدارس الوطنية أو غيرها فى القدس أو يافا أرسلهم إلى المدارس الكبرى فى بيروت أو الاستانة أو فرنسا أو غيرها. هكذا يفعل بيت الحسينى والخالدى فى القدس وبيت السعيد فى يافا وبيت عبدالهادى فى نابلس. ورأينا اضطراباً فى أميال الأهلين من حيث الخطة التى يجب أن يتخذوها فى تعليم أبنائهم هو تابع لاضطراب جو السياسة . ولابد أن تستقر الأحوال . وعسى أن نستقر على ما يوافق مصلحة البلاد العربية والأمة العربية والدولة العثمانية.

المكتب الصحى المختلط

وفى القدس مكتب أو معمل للأبحاث الطبية والفحص الميكروسكوبى يندر مثله فى الشرق. أسسه الأجانب واليهود - اشترك فى إنشائه ثلاث جمعيات طبية:

١ - الجمعية الألمانية لمحاربة الملاريا.

٢ - المكتب الصحى اليهودى.

٣ - جمعية الأطباء والعلماء اليهود لتحسين الصحة فى فلسطين وسموه المكتب الصحى المختلط.

وللمكتب المذكور لجنة تدير شئونه مؤلفة من بعض اعضاء الجمعيات الثلاث المتقدم ذكرها. وهو مؤلف من معامل للأبحاث الطبية أهمها:

١ - معمل الملاريا للبحث فى مقاومة هذا الداء رئيسه الأستاذ مولنس.

٢ - المعمل الهيجينى بإدارة الدكتور برين.

٣ - معمل الكلب والمصل بإدارة الدكتور بيهان. الغرض منه استحضار الأمصال اللازمة والبحث فى حوادث الكلب التى تقع. وهذا نادر لا وجود لمثله فى سوريا على ما نعلم.

ولذلك فمن يصاب بالكلب فيها يحملونه إلى مصر أو أوروبا.

أما القدس فقد أنشئ فيها هذا المعمل لهذا الغرض.

٤ - المعمل البكتريولوجي للبحث في الميكروبات على الإجمال إدارة الدكتور كولدبرج.

وهناك فروع طبية للأبحاث المختلفة أهمها فرع الملاريا بإدارة الدكتور كنعان. وهذا الداء كثير الانتشار في القدس لأن ماءها أكثره مجموع في الصهاريج.

الصهيونية

تاريخها واعمالها

الصهوينية دعوة اجتماعية سياسية انتشرت فى الأمة الإسرائيلية بأواخر القرن الماضى وكثر تحدث الناس فيها بالأعوام الأخيرة. وقد همنا أمرها على الخصوص فى أثناء رحلتنا بفلسطين. ولابد لنا فى بحثنا عن أحوال تلك البلاد الاجتماعية والاقتصادية من الاشارة إلى هذه الدعوة وتأثيرها الشديد فى تلك الأحوال. فرأينا أن نأتى على خلاصة تاريخها وحقيقة غرضها لزيادة الإيضاح فنقول:

موضوعها

قد تقدم فى كلامنا عن تاريخ فلسطين فى الهلال الماضى كيف تشتت اليهود فى أنحاء العالم بعد أن جاهدوا فى الدفاع عن أورشليم دفاع الأسود. وقد مضى عليهم فى هذه الهجرة نحو ١٩ قرناً وهم يندبون وطنهم ودولتهم وهياكلهم.

ولاسيما هيكل سليمان الباقية آثاره فى القدس إلى الآن كما سنبينه مصوراً فى رحلتنا. وقد حاولوا استرداد ذلك الوطن عبثاً ونظموا الأشعار فى رثائه. ولا يزالون إلى اليوم يبكون ذلك المجد الذاهب كل أسبوع عند أحجار يعتقدون أنها من بقايا هيكل سليمان.

وقد حاول اليهود المهاجرون السعى فى استرجاع ذلك الوطن غير مرة بأساليب مختلفة آخرها الحركة الصهيونية التى نحن فى صددها.

ولابد لكل دعوة اجتماعية أو سياسية من غرض ترمى إليه. وغرض الصهيونية «جمع الشعب الإسرائيلى فى فلسطين وجعلها وطناً خاصاً به» وهى مبنية من الوجهة الدينية على آيات جاءت فى سفر أرميا الفصل ٣٠ عدد ١٠ حيث يقول «لا تخف ياعبدى يعقوب يقول الرب ولا تفزع ياإسرائيل فإنى أخلصك من الغربة وذريتك من أرض جلائهم فيرجع يعقوب ويستقر فى الراحة والخصب ولا يرعبه أحد» وفى حزقيال (ص٣٩ عدد ٢٨) «فيعلمون أنى أنا الرب إلاههم بإجلائى إياهم إلى الأمم ثم جمعى إياهم إلى أرضهم بحيث لا أبقى هناك منهم أحداً من بعد» وفى عاموس قول صريح

(ص٩: ١٤) «وأردُّ شعبى إسرائيل فيبنون المدن المخربة ويسكنونها ويغرسون كروماً يشربون من خمرها وينشئون جنات يأكلون من ثمرها وأغرسهم على أرضهم فلا يقتلعون فيما بعد من أرضهم التى أعطيتها لهم».

وهناك نبوآت أخرى بهذا المعنى أو نحوه فى زكريا واشعيا وميخا وغيرها. غير ما عندهم من الاعتقاد بالمسيح الذى سيأتى ويجمع بنى إسرائيل حوله ويزحف على القدس ويعيد العبادة للهياكل وغير ذلك مما جاء فى التلمود.

على أن هذه الأقوال وأمثالها لا تكفى لإجماع الأمة على العمل بها ، إن لم يتوقع واصحابها نفعاً اقتصادياً أو سياسياً من ورائها أو أن يدفعهم للعمل جوع أو اضطهاد أو ظلم. كم من اعتقاد يعتقده الناس ولا يجتمعون للعمل به لعجزهم عن ذلك أو لعدم الاضطرار إليه ؟ وإنما يجتمعون للعمل فى ما يرون لهم فيه مصلحة حقيقية. ويتذرعون إلى الاجتماع غالباً بأسباب دينية يتوكئون عليها ويؤولونها إلى ما يساعدم على ذلك القيام.

ولابد فى مثل هذه الحال من محرك يبعث على النهوض. وقد بعث اليهود على هذه الحركة أمران: الأول تمكن الروح الملية من نفوسهم على اثر الارتقاء الاجتماعى والعلمى فى

العالم المتمدن. فإن شيوع الحرية الشخصية ولَّد فى نفوس الأمم عصبية عنصرية غلبت على الجامعات الأخرى. وبهذه العصبية يطلب المجر التخلص من النمسا ويحاول البلقانيون الخروج من سلطة تركيا. والبلقانيون أنفسهم يتحاربون الآن باسم العنصرية مع أنهم من مذهب واحد وإقليم واحد. والأمر الثانى مبالغة الأمم النصرانية فى امتهان اليهود باسم الانتسميتزم (Antisemitism) ومعنى اللفظة «مقاومة الساميين» لكنهم يريدون بهم اليهود خاصة. فآل ذلك طبعاً إلى اجتماع كلمة اليهود بأوروبا وفيهم طائفة حسنة من أصحاب الأموال ورجال السياسة والعلم وأهل الهمة والنشاط فأخذوا يبحثون فى الدفاع عن أمتهم. وآنسوا فى أنفسهم المقدرة على العمل بتلك الآيات فوجهوا عنايتهم إليها فأخذ كتابهم يحرضون قومهم على الاستعمار فى فلسطين للتخلص من اضطهاد الأمم لهم. وقال بعضهم «إذا لم يكن ابتياع فلسطين ممكناً فلنطلب وطناً فى مكان آخر على وجه هذه البسيطة».

ونشط آخرون لاستنصار الجمعيات الخيرية الإسرائيلية كجمعية الاتحاد الإسرائيلى على القيام بهذا العمل سنة ١٨٦٢ ولكن هذه الجمعية غرضها الرئيسى تهذيب الشبيبة

اليهودية. وحاول غيرهم استنهاض جمعية اليهود الانجليزية في لندن وجمعيتهم في برلين فترتب على ذلك تأسيس الجمعية العمومية الفلسطينية وجمعية الاستعمار الفلسطيني. لكن الدعوة لم تكن نضجت بعد فلم تأت هذه المساعي بثمرة. فوجهوا التفاتهم إلى وادي الفرات لعله يصح أن يكون مهجراً لهم. وبذل السياسي أولفانت الانجليزي جهده في نيل امتياز خط حديدي في ذلك الوادي ليسكِّن فيه مهاجري اليهود من روسيا. واقترح إنشاء مهجر يهودي في فلسطين بنواحي السلط على أن تتألف جمعية رأس مالها عشرة ملايين فرنك تبتاع مليون فدان يستثمرها يهود بولندا ورومانيا والاناطول. فلم يأذن لهم السلطان - وقس على ذلك سائر مساعيهم في هذا السبيل.

لكن روح الصهيونية اخذت تتمكن من قلوب اليهود. وهم يزدادون تمسكاً بالعنصرية كلما زاد مقاوموهم شدة. فكثرت الجمعيات التي تألفت لهذه الغاية. وأول جمعية أفلحت في استثمار أرض فلسطينية نشأت سنة ١٨٧٩ ولما التأم المؤتمر الإسرائيلي سنة ١٨٨٤ للنظر في أحوال المستعمرين والأخذ بناصرهم حضره مندوبون عن خمسين جمعية فازداد القوم

نشاطاً. وبلغت الحركة أشدها سنة ١٨٩٤ واوشكوا أن يبلغوا غايتهم لكن العثمانيين انتبهوا لاغراضهم فحالوا بينهم وبين ما يريدون. ولم يستقر عملهم على قواعد متينة إلا بعد ظهور الدكتور تيودور هرتسل صاحب الدعوة الصهيونية وهو رجل نمساوى شديد الغيرة على العنصر الإسرائيلى عالى الهمة قوى الحجة. كتب وهو فى باريس سنة ١٨٩٥ كتاباً فى استعمار اليهود سماه «الوطن الإسرائيلى» لم يزعم أنه يستنهض به الهمم أو يستثير العزائم بل قال إنه كتبه لنفسه ولإيقاف بعض أصدقائه على آرائه. ولكن الكتاب ما لبث أن طبع فى ڤيينا بالنمساوية حتى نقل إلى الفرنساوية والانجليزية والعبرانية وأعيد طبعه مراراً وراج رواجاً عظيماً. وحرك الهمم فوق ما كان يتوقع الناس منه. وقد عارضه كثيرون لكن المجارى الاجتماعية اقتضت ظهور ثمره لأن فكرة استعمار اليهود لفلسطين كانت قد نضجت واستعدت لها الأذهان وتاقت إليها النفوس.

وخلاصة آراء هرتسل فى ذلك الكتاب «أن أعداء الساميين آخذون فى الازدياد ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم فى الأرض فهم فى حاجة إلى الاجتماع فى وطن

خاص بهم» فاقترح إنشاء شركة يهودية اقتصادية رأسمالها ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه مركزها لندن. وأن تتألف جمعية سياسية يهودية تدبر أعمال هذه الشركة وتشير عليها بما ينبغى عمله. واقترح للقيام بذلك ابتياع فلسطين أو الارجنتين على أن ينتقل إليها اليهود انتقالاً منتظماً. ثم عدل هرتسل رأيه هذا فحصر طلبه باستعمار فلسطين دون سواها لعلمه أن الناس لا يساقون بمثل الشعائر الدينية واليهود هجروا فلسطين وقلوبهم فى هيكل سليمان.

ولم تمض سنة على نشر آراء هرتسل حتى أقبلت الجمعيات على الأخذ بها. وأول من فعل ذلك جمعية اليهود النمساوية فوقع بضعة آلاف منهم سنة ١٨٩٦ على خطاب يطلبون فيه تأسيس جمعية يهودية فى لندن. غير من أخذ برأيه وتعصب له من الناشئة المتألمين من مقاومة اليهود. على أن طائفة كبيرة من الحاخامين فى روسيا وألمانيا والنمسا وانجلترا عارضوه في بادئ الرأى لانه لم يعتبر الوجهة الدينية من المسألة كما ينبغي. ولأن أتباعه أكثرهم من الشبان المتنورين واتهموهم بكل قبيح. وكان المسيحيون أشد عطفاً

على الصهيونية من أولئك الحاخامين فنصروها بأقلامهم وألسنتهم.

ومن جملة العقبات التي قامت في طريق الصهيونية مسألة التعليم لأن الحاخامين اعتبروا نشر العلوم العصرية من قبيل الخروج عن الآداب الدينية. وأشاعوا أن الصهيونية من آلات الكفر. فلما انعقد المؤتمر الثاني رأى هرتسل من الحكمة مسالمة رجال الدين فاعترف أن الصهيونية تشمل السعي في إحياء شعائر الدين فضلاً عن الاقتصاد والسياسة.

أعمال الصهيونية ووسائلها

قد يستغرب القارئ نجاح هذه الدعوة في هذه المدة القصيرة. لكنه إذا علم الغرض والوسيلة هان عليه ذلك. دعا هرتسل الشعب اليهودي من انحاء العالم المتمدن إلى مؤتمر اجتمع في باسل سنة ١٨٩٧ حضره نيف ومائتا عضو بعضهم يمثلون جماعات. وكانت الاذهان متأهبة لقبول الدعوة فلم يكتفوا بإعلانها - وهي ايجاد وطن شرعي للشعب الإسرائيلي في فلسطين - بل بحثوا في الوسائل المؤدية إلى نشرها وتأييدها فقرروا لذلك ثلاث وسائل من أرقى الوسائل المؤدية إلى النجاح وهي:

١ - احياء الآداب العبرانية ونشرها.

٢ - انشاء مدارس لتعليم اللغة العبرانية.

٣ - انشاء مالية مشتركة لليهود.

وأخذوا بعد انفضاض هذا المؤمر في تأييد هذه القرارات بنشر الكتب وإلقاء الخطب في اللغات العبرانية والألمانية والفرنسية والانجليزية والعربية. وشكلوا عمدة للاستعمار الإسرائيلي. فلما انعقد المؤتمر الثاني في ڤينا ثم في باسل سنة ١٨٩٨ ظهر من التقارير التي تليت في ذلك الاجتماع أن الجمعيات الصهيونية القائمة بذلك العمل تضاعفت كثيراً وأصبح عددها ١١٥٠ جمعية. فأخذ أعداؤها يتقربون منها وآمن بمبادئها كثيرون من رجال الدين. وتقرر في هذا المؤتمر تعيين جمعية خاصة بالاستعمار غرضها توسيع نطاقه وأن تكون اللغة العبرانية هي لغة اليهود حيثما وجدوا.

وقس على ذلك ما جرى في المؤتمرات التالية. فانعقد المؤتمر الثالث في باسل أيضاً وكانت أبحاثه أكثرها في نيل امتياز من السلطة عبدالحميد لم يسفر عن نتيجة وبلغ عدد الجمعيات الروسية فقط ٨٧٧ جمعية. وعدد المنتظمين في عضوية الجمعية ٢٥٠,٠٠٠ نفس. وانعقد المؤتمر الرابع في

لندن سنة ١٩٠٠ والخامس في باسل سنة ١٩٠١ وفي هذا المؤتمر تقرر عقد مؤتمر عمومي كل سنتين. غير المؤتمرات الفرعية في أثناء السنتين. وقرروا إنشاء مكاتب للمطالعة ومدارس وتأليف دائرة معارف عبرانية. وانعقد المؤتمر السادس في باسل سنة ١٩٠٣ وتقرر فيه إرسال لجنة إلى أوغندا تبحث في هل تصلح تلك البلاد للاستعمار. وقرر تخصيص ٢٠٠,٠٠٠ جنيه لشراء أرض في فلسطين وسوريا.

وفي السنة التالية ١٩٠٤ توفي الدكتور هرتسل صاحب هذه الدعوة فانتخبوا مكانه الدكتور نوردو رئيساً. وعرضت انجلترا في ذلك العام على الصهيونيين أرضاً في شرقي إفريقيا الانجليزية على سكة حديد اوغندا بين نيروبي وماو لأجل انشاء مستعمرة يهودية مستقلة بأحكامها تحت رعاية الدولة الانجليزية. فعينت لجنة للبحث فقررت أن البقعة ضيقة لا تكفي فرفضوها. وقس على ذلك سائر مؤتمرات الصهيونية وآخرها المؤتمر الحادي عشر الذي انعقد هذا العام في ڤينا برئاسة الموسيو ولنسن وقد جاء فيه أن الصهيونية سائرة على قدم النجاح وأن سلامتها مرتبطة بسلامة الدولة العثمانية

لأن المسألة اليهودية والمسألة العربية متفقتان. وقرر أشياء أخرى أهمها إنشاء جامعة فى أورشليم لتعليم العلوم العالية باللغة العبرانية وفى جملتها اللغات الشرقية والفلسفة القديمة والحديثة. غير المؤتمرات الفرعية التى كانت تعقد فى أنحاء العالم المتمدن. ومنها مؤتمر عقد فى زمارين من أعمال فلسطين حضره ٥٠ عضواً وشرط للدخول فى الجمعيات خمسة قروش يدفعها الطالب. وقسموا فلسطين من حيث الصهيونية إلى ست مناطق وتقرر تأليف جمعيات وفروع للأخذ بناصرها.

ومن قرارات المؤتمر السابع من حيث العمل فى فلسطين السعى فى التنقيب عن الآثار وترويج الزراعة والصناعة وتحسين سائر الأحوال الاقتصادية وترقية الهيئة الاجتماعية اليهودية وغير ذلك. وبلغت الجمعيات الصهيونية الأن ألوفاً عديدة ترجع فى أعمالها إلى قرارات المؤمرات العامة.

وللجمعية مصارف مالية لترويج أغراضها منها «المصرف اليهودى الاستعمارى» وغرضه سياسى. وهو أهم أدوات الجمعية فى موضوعها الأساسى. والغرض منه «تنشيط الاستعمار الإسرائيلى فى فلسطين وسوريا وسائر أنحاء

تركيا وفى جزيرة سينا وقبرص». وهو بنك مساهمة عدد المساهمين فيه نحو ١٣٥,٠٠٠ وله شعبة في يافا باسم الشركة الانجليزية الفلسطينية لها فروع فى أكثر مدائن فلسطين. وزاد رأس ماله على ١٢٠,٠٠٠ جنيه. والبنك اليهودى الملي والغرض منه جمع رأس مال يكون ملك الصهيونية يستخدم لابتياع الأراضين فى فلسطين. واشترطوا أن رأس ماله لا يمس حتى يبلغ ٥٠,٠٠٠ جنيه. وقد زاد الآن على ١٢٠,٠٠٠ جنيه.

غير ما أنشأته الجمعية من وسائل التعليم والتهذيب كالمكاتب والمدارس والجمعيات الأدبية والصحية للرجال والنساء وعززوا شأن المرأة وأعطوها حق التصويت والانتخاب لعضوية المؤتمر فألفت الجمعيات النسائية الأدبية والتهذيبية والاجتماعية.

وناهيك بما أنشئوه من الصحف الكبرى لخدمة أغراض الجمعية في روسيا والنمسا وألمانيا وايطاليا وانجلترا ومصر وبلغاريا وغيرها. وانتشرت الدعوة الصهيونية بذلك فى انحاء العالم المتمدن إلى الصين واليابان وتركستان والفلبين فضلاً عن ممالك أوروبا وأمريكا وغيرهما. وأصبح أنصارهما يعدون

بالملايين. وهى مؤلفة من أحزاب وفرق تتناقش وتتباحث سعياً فى المصلحة العامة وتأييد الغرض الأصلى المراد بها. فهى اشبه بدولة ديمقراطية منها بجمعية سياسية اجتماعية. وقد اتخذت أحسن الوسائل المؤدية إلى تقوية البدن وتوسيع العقل وتأييد المبدأ فأفلحت مساعيها. وأنشأت فى فلسطين مستعمرات يهودية فى أطيب أرضها وأكثرت من المدارس والمزارع والجمعيات والمكاتب والمصارف والمعامل الصحية والطبية. وأهم تلك المساعى من الوجهة الاجتماعية إحياء اللغة العبرانية وآدابها مما سنأتى على أمثلة منه فى الكلام كعن أحوال فلسطين الاقتصادية والاجتماعية من رحلتنا لهذا العام.

اليهود والتاريخ
أو اليهود في الدولة الرومانية
والدول الإسلامية

تمهيد

خرجنا من ظلمات الأجيال الوسطى وقد تمكن التعصب الدينى من نفوسنا وتأصلت البغضاء بيننا. وأصبحت كل طائفة منا تنظر إلى سائر الطوائف نظر العدو اللدود. وتحتقر اعتقاداتها وتنسب إليها من الفظائع أو الخرافات ما هى براء منه. وإنما حملنا على ذلك الجهل وفساد الأخلاق بما توالى على آبائنا من أسباب الذل والظلم.

فالنصارى كانوا إلى عهد غير بعيد ينظرون إلى الإسلام نظر الحذر والخوف. ويعتقدون فيه ما غرسه أهل الأجيال المظلمة فى نفوسهم مما اختلقوه على أصحابه من المفتريات حتى اتهموهم بالوثنية والوحشية. وقد حمل إلينا ذلك فى جملة ما جاءنا على أيدى بعض المبشرين من الإفرنج قبل هذه النهضة. ففتحنا أعيننا ونحن نتوهم فى الإسلام ما ليس فيه. وهكذا كان شأننا مع اليهود لمثل ذلك السبب. فاعتقدنا فيهم

فظائع لا يتصورها العقل. في جملتها أنهم يستحلون قتل الأطفال المسيحيين.

وكان المسلمون يعتقدون مثل ذلك فى النصارى على أثر الحروب الصليبية وما جاء بعدها من الأجيال المظلمة. ولاسيما فى القرنين الأخيرين قبل هذه النهضة وأصبحوا يسيئون الظن بهم ويصرحون باحتقارهم وتقبيح معتقداتهم حتى في المعاملات الرسمية وخصوصاً في البلاد البعيدة عن المدنية. وقد ذكرنا فى الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامى صفحة ١٢٧ صورة رخصة من جانب الشرع الشريف بديار بكر بدفن رجل مسيحى تمثل ما تقدم. وقس على ذلك نظرهم إلى اليهود.

أما اليهود فكانوا أكثر تعرضاً للإهانة والاحتقار من سواهم لأنهم قضوا نحو عشرين قرناً وهم مشتتون تائهون لا دولة تحميهم ولا جند يدافع عنهم. حتى أصبح اسمهم مرادفاً للذل والضعة - وهم طبعاً ينظرون إلى سائر الأمم نظر الحذر وسوء الظن.

ومن يتصدى للكتابة فى التاريخ والاجتماع من أبناء هذا العصر من أهم واجباته تخفيف هذا التباغض ونزع سوء

التفاهم وإنصاف كل طائفة بتحقيق تاريخها وإذاعة فضلها.

وقد جعلنا ذلك همنا منذ أنشأنا الهلال مع ما يعتور هذه الخطة من العقبات لما فى ذلك من مقاومة الاعتقادات المتأصلة فى النفوس منذ أجيال. فكتبنا فى الإسلام وتمدنه ما نعتقد صحته وإن خالف ما يعتقده غير المسلمين. حتى اتهمنا بعضهم بمصانعة المسلمين أو المروق من النصرانية ونحن لا نبالى لأننا نخدم المبادئ لا الأشخاص.

وأنصفنا اليهود مرة فى مسألة الدم والفطير فى السنة الرابعة من الهلال إذ سنحت الفرصة والناس يتحدثون فى هذه التهمة فنزهناهم عنها.

وقد تناقلت الجرائد بالأمس حكاية بايليس الإسرائيلى الروسى فى مثل هذه التهمة. وتباحثت الصحف فيها وأعاد بعضها النغمة القديمة. فرأينا أن نكتب مقالة وافية فى اليهود والتاريخ على الإجمال ولاسيما بعد تشتتهم فى الأرض.

أولاً - اليهود فى الدولة الرومانية

لليهود تاريخ طويل أتينا على فذلكة منه فى كلامنا عن فلسطين فى الهلال الأول من هذه السنة. ونكتفى هنا

بتاريخهم بعد خروجهم من أوطانهم والتشتت في الأرض على أثر ما انتابهم من الفتوح أو السبى. وما لحق عاصمتهم (أورشليم) من الغزو والتهديم . ولاسيما بعد خرابها الشهير على يد طيتس الأمبراطور الرومانى فى القرن الأول للميلاد .

على أن اختلاطهم بالأمم المتمدنة فى الدول القديمة يبدأ قبل خراب أورشليم بأجيال. أقدمه هجرتهم من مصر وتيههم فى البرية وسبيهم إلى بابل. غير نزوحهم من بلادهم فى طلب الثروة من عهد الفينيقيين جيرانهم - وكانوا يقلدونهم بالأسفار والاتجار فى البحر المتوسط. ولما جاءهم الإسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد وتولاهم خلفاؤه اقتضت سياسة تلك الدولة إنشاء مدن جديدة ومزج سكانها على اختلاف مللهم وتجنيسهم بالجنسية اليونانية. بحيث يكونون أمة واحدة فأطلقوا حرية التجارة وساووا الرعايا بالحقوق. فاغتنم اليهود تلك الفرصة وسافروا للارتزاق.

ولم يدخل القرن الأول للميلاد حتى انتشر اليهود فى شمالي إفريقيا وشرقى أوروبا وغربى آسيا. وأصبحت

أورشليم مركزاً تجارياً هاماً تمتد معاملاتها إلى بلاد كثيرة خارج فلسطين لكثرة الذين هاجروا من اليهود. فتوطن بعضهم في ما يجاورها من المدن في مصر وسوريا وفينيقية. وشخص آخرون إلى آسيا الصغرى وقطعوا البحر إلى أوروبا فأقاموا في تساليا ومكدونيا واثينا وارغوس وغيرها من بلاد اليونان وجزائرهم غير المقيمين منهم في ما بين النهرين وفارس. ولما صارت فلسطين إلى الرومان حمل بومبيوس جماعة من أسرى اليهود إلى رومية. ثم سافر جماعة منهم إليها للتجارة فتكاثروا هناك أيضاً.

قال يوسيفوس في كلامه عن شعب إسرائيل في أيامه (القرن الأول للميلاد) «إن اليهود في ما بين النهرين لا يعدون بالألوف بل بالملايين» وكانت إقامتهم هناك على الأكثر في نصيبين. وقد تكاثروا واشتد ساعدهم حتى خافهم تراجان امبراطور الروم لما حمل على تلك البلاد. وكانوا أكثر من ذلك في سوريا ولاسيما في دمشق وإنطاكية. وناهيك بمن كان منهم في بثينيا وفريجيا وليديا وبونطس وغيرها من آسيا الصغرى. فإن دعاة النصرانية يومئذ كانوا حيثما حطوا رحالهم وجدوا نزاله من اليهود.

أما فى مصر فإن الإسكندرية كانت آهلة باليهود يشغلون حيين كبيرين منها. وكان لهم دخل كبير فى ما اكتسبته تلك المدينة فى عهد البطالسة من الشهرة فى العلم والتجارة والشعر والفلسفة. وكانت حقوقهم المدنية فيها مثل حقوق اليونان. ولما صارت مصر رومانية ظلوا على ما كانوا عليه من الحقوق. ثم نشأ التحاسد بينهم وبين الروم فاضطهدتهم الحكومة حتى أخرجتهم من أكثر أحياء المدينة وحصرتهم فى حى واحد. فحملهم ذلك على الاستعانة بالجامعة الدينية بينهم وبين اليهود فى سائر المملكة الرومانية وثاروا ثورات كثيرة لم تجدهم نفعاً.

أما رومية فكان اليهود فيها كثاراً. ولما غضبت عليهم الحكومة طردتهم منها وأبعدت ألوفاً منهم إلى سردينيا. على أن أحوالهم كانت تختلف باختلاف الامبراطورين بين غضب ورضى. فلما صارت الدولة إلى كلوديوس أعلن رضاه عنهم فعادوا إلى رومية. ثم ساء الظن فى اجتماعاتهم فأمرهم أن لا يجتمعوا وتوالت عليهم أحوال مختلفة لا محل لها هنا.

على أن كثيرين من يهود آسيا الصغرى تجنسوا بالجنسية الرومانية - ليس رغبة فى الشرف لانهم يفضلون

جنسيتهم الأصلية على كل جنسية أخرى. لكنهم فعلوا ذلك لحماية حقوقهم كما كان يفعل بعض العثمانيين فى أيام الاستبداد بالانتماء إلى الدول الأجنبية لمثل هذا الغرض.

وكانت الحكومة الرومانية تأذن لليهود بالاجتماع فى كنائسهم - وهو امتياز لم ينل مثله الرومان أنفسهم. فكانوا يجتمعون كل سبت فى الكنيسة بمعزل عن العيون وكان النصارى فى أوائل دعوتهم إذا أرادوا الفرار من الاضطهاد تظاهروا باليهودية.

وكان لليهود امتيازات طائفية لإنشاء مجالس خصوصية للقضاء فى أمورهم الشخصية وغيرها من شئونهم الداخلية - والحكومة الرومانية تؤيد أحكامهم وتتكلف تنفيذها بما يشبه امتيازات طوائف النصارى فى الدولة العثمانية. وأذنت لهم أن يجمعوا الضرائب الكنسية ويرسلوها إلى أورشليم. فكانوا يرسلون من هذه الضرائب أموالاً طائلة كل عام. وكانت الحكومة تحترم شعائرهم الدينية فلا تدعو اليهودى إلى محاكمة أو مهمة أخرى فى يوم السبت. وإذا أصدرت أمراً بتوزيع الحنطة والأموال على رعاياها وكان ذلك فى يوم السبت أجلوا ما يعطى لليهود إلى اليوم التالى.

فهذه الامتيازات ونحوها لم يغير منها قياصرة الروم ما يستحق الذكر - إلا فى ظروف خاصة. لكنهم كانوا ينكرون عليهم «الختان» حتى أمروهم بالكف عنه - لا يريدون بذلك مصادرة اعتقادهم وإنما نظروا فيه من وجه أدبى. على أنهم رأوا فى ديانة موسى حسنات كثيرة فأخذوا فى اعتناقها. فلما تكاثر الداخلون فيها حسدهم كهان الوثنية وأخذوا يسعون ضدهم لدى الدولة فصدر الأمر بمنع اجتماعهم خوفاً من تكاثرهم وعصيانهم وهم أمة داخل أمة. لانهم كانوا يجتمعون فى كنيسهم سراً بلا مراقبة كما رأيت وهم أهل ثروة وعلم ولهم فى كل بلد كنيس يجتمعون فيه كالمحافل الماسونية. فضلاً عن الاجتماع الأكبر فى الهيكل الأكبر بأورشليم. وهم يحجون إليه من أقطار العالم كما يحج المسلمون إلى مكة. على أن اجتماعهم فى أثناء الحج بأورشليم لم يكن له كبير فائدة وهم لا يحسنون التفاهم إذا اجتمعوا لتكاثر الألسن وتبلبلها. لأن كل أمة كانت تتكلم لسان البلد الذى تقيم فيه فإذا اجتمعوا فى أورشليم كانت أشبه ببرج بابل.

ونبغ من اليهود فى عهد الدولة الرومانية طائفة كبيرة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين والشعراء وأكثر مؤلفاتهم باللغة اليونانية. وقد تمكنوا من آداب هذه اللغة وعلومها. وأشهرهم عندنا يوسيفوس المؤرخ الشهير المتوفى فى آخر القرن الأول للميلاد.

واليونان يومئذ يعبدون الأوثان وقد بنوا تمدنهم وعلومهم على الوثنية. فأراد اليهود أن يضموهم إليهم ويدخلوهم فى دينهم. وهم يعرفون تمسكهم بوثنيتهم فاستنبطوا حيلة تسهل اختلاطهم بهم بتفسير التوراة تفسيراً يوفق بين تعاليمها وتعاليم اليونان. وأشهر من قام بذلك فيلون الإسكندرى وكان معاصراً ليوسيفوس. ففسر التوراة تفسيراً يجعل العقائد الدينية اليونانية مستخرجة من التوراة. وزعم أن فى الأسفار الخمسة كل العلوم والرموز الفلسفية والميثولوجية وغيرها. فقال مثلاً إن حكاية هركيل عند اليونان إنما هى نفس حكاية إبراهيم الخليل. وإن موسى هو نفس «موسيوس» معلم أورفيوس الذى كان يعبده المصريون باسم توت ثم سماه اليونان عطارد. وهو مؤسس ديانة المصريين ومدنيتهم وأبو الفلسفة ومخترع الكتابة وبناء السفن وغير ذلك.

واضطر فيلون للتوفيق بين التوراة وتعاليم اليونان الوثنية أن يتكلف التأويل البعيد بالرموز والألغاز أو الكنايات. فقال مثلاً إن الأنهار الأربعة الجارية من عدن إنما هى الفضائل الأربع الرئيسية – وقس عليه سائر التأويل. على أن تأويلاته هذه لم تأت بثمرة ولم تبق إلا ريثما انقضى القرن الأول للميلاد فذهبت وانقلب سعى اليهود عليهم وساءت الظنون بهم. وأصبح اليونان ينظرون إليهم بحذر وتحولت أفكار رجال العلم إلى الطعن فى توراتهم. فقالوا عن موسى إنه كاهن مصرى ساق زعانف اليهود ومرضاهم وأهل العاهات منهم إلى البرية فألف منهم تلك الأمة. واتهموهم بأكل لحم الآدميين وأنهم يعبدون رأس الحمار إذ لم يروهم يعبدون إلهاً منظوراً. وقد فعل اليونان ذلك نكاية فى اليهود لانهم كانوا يحتقرون ألهتهم. وقد ساء اليونان أيضاً اعتزال اليهود عنهم وتجنب الاختلاط بهم وزعمهم شرف أرومتهم وأنهم من طينة خاصة «شعب الله الخاص». وأصبح كل من الجانبين يطعن فى صاحبه ويختلق الاقاويل عليه. فيستنبط الآخر مزاعم يدافع بها عن نفسه. وقد زاد التباعد بينهما أمر الختان كما تقدم. وكانت النصرانية فى الانتشار رويداً رويداً فلما آن لليونانيين

(أو الروم) ان يتدينوا بدين الهى وجدوا النصرانية أقرب إلى رغائبهم لأنها لا تفضل أمة على أمة فمالوا إليها. وتنصر من كان قد تهود من اليونان ثم تنصرت دولة الروم نفسها.

فزادت الضغائن بسبب ذلك بين اليونان واليهود واشتدت وطأة الدولة عليهم وازدادوهم نقمة عليها. وكانت هذه النقمة على معظمها فى أيام هرقل عند ظهور الإسلام. فثاروا فى انطاكية فقتلوا بطريركها ومثلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً فأرسل إليهم هرقل جنداً قتلوا منهم جمعاً غفيراً. وثاروا فى صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها. وتآمر يهود صور وفينيقية وفلسطين على أن يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى. فاطلع مطران صور على المكيدة فأخبر الوالى بها فنبه هذا على الحامية والبوابين والحراس أن يكونوا على حذر. ولما جنَّ الليل هجم اليهود من خارج السور فردهم الجند على أعقابهم فرجعوا إلى الأديرة والكنائس بجوار المدينة فهدموها وسلبوا آنيتها. وفعلوا نحو ذلك فيما جاورها من القرى. فعاقبتهم الحكومة فقتلت كل يهود صور. وحدث مثل ذلك فى قيسارية فلسطين فأرسل الملك أخاه تاودورس فقتل من كان فيها من اليهود. فاشتد غيظهم على المملكة فى كل انحائها. وزاد خوف

الروم من اليهود أن بعض أهل التنجيم أنبأوا الملك أن واحداً من أهل الختان سيأخذ المملكة منه - ويقول العرب أن المراد بأهل الختان المسلمون. ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية فى الروم أنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفاً من أسرى النصارى وذبحوهم. فلما ظهر الإسلام وخرج العرب لفتح المملكة الرومانية كان اليهود عوناً لهم عليها.

ثانياً - اليهود في الدول الإسلامية

اليهود والنصاري في أوربا

إن لم يكن للروم من أسباب النقمة على اليهود غير مساعدة العرب على الفتح لكفى به سبباً. واتفق دخول أوروبا فى الأجيال المظلمة ومصادرة العقول والحقوق فازداد النصارى كرهاً لليهود. وأصبحوا يصدقون كل ما يقال فيهم من الطعن فنسب إليهم الاكليروس كثيراً من المنكرات واتهموهم بأمور تزيد كره العامة لهم. وحرمتهم الحكومة من حقوق كثيرة يتمتع بها سواهم. فأصبح اليهودى لا تقبل شهادته على المسيحى. واقفلت مناصب الدولة دونهم وغدوا عرضة للاستعباد لأقل الأسباب. ولم يأذنوا لهم بتجنب الأطعمة التى يحرم دينهم أكلها. ومنعوهم من الختان تحت

طائلة العقاب الشديد وصادروا أموالهم. وكانوا يقبضون على كتبهم الدينية ويعدمونها. ويبذلون كل وسيلة للتفريق بين الرجل وامرأته والسيد وعبيده بحجج تتعلق بالشرع.

وكانوا يدونون اسماء اليهود فى السجلات ويستعرضونهم كما تستعرض الماشية. وإذا انتقلوا من بلد إلى آخر راقبوهم ودققوا في البحث عن أحوالهم وسبب انتقالهم. وأصدر مجمع طليطلة السابع عشر أمراً بالقبض على أملاكهم فى أسبانيا واستعبادهم بتهمة اشتغالهم في ما يخل بالراحة ويخالف الإنسانية. وأنهم يذبحون أبناء النصارى ويأكلون لحوم الآدميين. غير ما اتهموهم به من إهانة الايقونات وتدنيس الآنية المقدسة وسعيهم فى نشر تعاليمهم ونحو ذلك. وقد يكون بعض هذه التهم صحيحاً لكنهم اضطروا إليه بما أصابهم من الاضطهاد والتضييق - والمرء إذا أقفل عليه فى سجن حتى خاف الموت هل يلام إذا نقب السقف طلباً للنجاة؟ وهل يعاتب لأنه خرج من السقف ولم يخرج من الباب؟

وكان الملوك يصادرون أموال اليهود لأوهن الأسباب ويتركونهم لا يملكون طعاماً ولا لباساً. وكان الأشراف ووجهاء

الدولة يعدون اضطهاد اليهود من أكبر الفضائل التى يتقربون بها إلى الكنيسة. وأما حظهم من العامة فكان أدعى إلى الشفقة لأن نجاحهم فى أعمالهم التجارية كان باعثاً على الحسد والانتقام فى ظل التعصب الدينى. والدولة لا ترى غنى عن أموال اليهود فتستدين منهم وتحرمهم مع ذلك من التمتع بالحقوق المدنية التى يتمتع بها سواهم. وقد تعلم اليهود بالاختبار أن يعاملوا الناس بالمسامحة والتساهل. وأدركوا أن القوة الحقيقية إنما هى المال فإذا اختزنوه كان عوناً لهم فى درء المصائب والتقرب من رجال الدولة بتسليفهم النقود. لكن هؤلاء كانوا إذا أحتاج احدهم إلى المال اقترضه منهم بالرضى أو بالقهر وقلما يرون منه إنصافاً.

ولم يكن أسهل على أمراء ذلك الزمان إذا احتاجوا إلى النقود من أن يقبضوا على أموال اليهود المقيمين فى بلادهم فيأخذون ما فى أيديهم ويتركونهم يشتغلون فى جمع أموال أخرى. فإذا تم جمعها لديهم أعادوا الكرة عليهم وأخذوا منهم - كأنهم عمال يجمعون المال لهم. حتى فريدريك الثانى وهو صديق المسلمين والمعترف بفضلهم وفضل اليهود فيما أخذ بنشره من العلم بين رعاياه فإنه أصدر أمراً باستعباد اليهود

فى بلاده وقبض أموالهم. وأمر الانجليز فى أواخر القرن الثالث عشر أن يدفع اليهود اثنى عشر ألف جنيه بالتضامن. ولم يمض ثلاث سنين على ذلك الأمر حتى أخذت أموالهم كلها وأخرجوا من انجلترا. ولم يعودوا إليها إلا فى القرن السابع عشر على يد منسى بن إسرائيل الآتى ذكره. وكان من العادات المرعية يومئذ إذا سيم اسقف أن يقدم له اليهود مالاً باسم الهدية لكنها ضريبة لا مناص منها. وكانت الشرائع الرومانية تحكم لصاحب البهيمة المقتولة بحق بهيمته أما اليهودى إذا قتل فلا يطالب بدمه. وحدثت زلزلة فى رومية سنة ١٠١٦م هدمت بعض منزلها وبلغ البابا بندكتوس الثامن أن اليهود كانوا ساعة حدوثها يصلون فى معبدهم وانهم نسبوا ذلك الحادث إلى صلواتهم. فأمر بالقبض عليهم وقتل منهم كثيرين. ولو أردنا تعداد أمثال هذه الحوادث لاستغرقت كتاباً كاملاً.

قضى اليهود فى أوروبا أجيالاً فى مثل هذه الحال مضطهدين مكروهين مظلومين لكنهم ظلوا محافظين على جامعتهم الجنسية والدينية. وهذا غريب فى نواميس الاجتماع لأن الأمة التى تقضى مئات من السنين مشتتة مضطهدة

مظلومة لا دولة تحميها ولا جند ينصرها فقد حكم عليها بالزوال. أما اليهود فكانوا في أثناء هذه النوائب لا يزدادون إلا رسوخاً في الجنسية وثباتاً في الاعتقاد. وهو سر من أسرار تاريخهم اختلف العلماء في تعليله. وفي كل حال إنه يدل على قوة في عنصرهم تساعدهم على احتمال المشاق واستنباط طرق الكسب لا توجد في سواهم. وقد زادهم ثباتاً وصبراً صدق اعتقادهم بالتوراة وما فيها من المواعيد وما تشتمل عليه من مفاخر الأسلاف. وهو ما بعث على اتحادهم وتناصرهم مع بعد الدار. كان اليهودي في تلك الأجيال المظلمة حيثما حل في مدينة أو قرية لا يعدم من يأخذ بناصره من أبناء ملته. واكتسب بتوالي الأجيال استعداداً قوياً للصبر على الطوارئ الطبيعية فأصبح قويا بدناً عن سواه وأكثر نسلاً وأقل تعرضاً للأمراض الوافدة. وقد ظهر بالاحصاء أن وفيات اليهود في هذه الأمراض أقل كثيراً من وفيات الأمم الأخرى.

واكتسبوا بالاختيار الطويل مقدرة على الأسفار وضروب الاتجار ومعاملة الناس على اختلاف الاصقاع والاجناس.

فكان اليهودى يبتاع الكهرباء من البلطيك ويبيع الرقيق فى القسطنطينية ويبادل خمور أسبانيا بفرو روسيا وعطور اليمن ولؤلؤ البحرين. وقد جعله اصله الشرقى أقدر أمم أوربا على امثال هذه التجارة لا يستطيع سواه مناظرته فيها ولا فى غيرها من السلع مما يحتاج إليه الفقير والغنى الحاكم والمحكوم. ولذلك لم يكن للناس غنى عن معاملته والتقرب إليه. منعه الشرع من زيارة الكاهن بلا دعوة منه لكن هذا الكاهن لم يكن يستغنى عن انسجة هذا اليهودى ليصنع منها ثوبه الكهنوتى. ولا عن مصنوعاته ليتخذ منها آنية الكنيسة وادواتها. وكان يهود بروفنس بفرنسا يؤدون بدل الضرائب التى عليهم شمعاً ومواد أخرى يحتاج إليها النصارى فى كنائسهم.

ورغم ما كانوا يسومونهم اياه من الاضطهاد والعذاب كانوا لا يثقون بسواهم فى الأمور المالية الهامة وكثيراً ما ولوهم أعمال الجباية وعولوا على امانتهم واقتدارهم.

وناهيك بحاجتهم إلى علمهم وطبهم فالملوك والأمراء واللوردات وغيرهم لم يكن يخلو قصر احدهم من طبيب

يهودى. لأن الأطباء اليهود امتازوا عن سواهم يومئذ بالتعويل فى المعالجة على الطب العربى بالعقاقير الدوائية بلا تدجيل ولا تعزيم.

اليهود والمسلمون

تلك كانت حال اليهود مع دول أوربا فى الأجيال المظلمة. أما فى الدول الإسلامية فقد بلغوا من العز والرفعة ما لم يبلغوا إلى مثله فى أثناء هجرتهم. وضعوا ايديهم فى ايدى المسلمين لخدمة العلم فضلاً عن السياسة والصناعة والتجارة ونالوا حظهم من تعبهم - وهو عصرهم الذهبى ولاسيما فى الأندلس.

على أنهم أخذوا فى خدمة التمدن الإسلامى من صدر الإسلام وفيهم من اشتغل بترجمة العلوم القديمة فى صدر الدولة العباسية وأقبلوا على تلقى العلوم ودرسها والتأليف فيها فى دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة. واشتغلوا فى انشاء المدارس والأرصاد واقتناء الكتب.

وبلغ اليهود ارقى احوالهم العلمية والسياسية فى الأندلس من أوائل القرن العاشر إلى أواخر الثانى عشر للميلاد.

والأندلس يومئذ فى ابان تمدنها وثروتها وقد أخذ الخلفاء والأمراء بتقريب أصحاب المواهب من كل الطوائف فكان اليهود من أكثرهم حظاً. فاتخذوا منهم أطباء وأساتذة ومهندسين وبنائين وصيارفة ورجالاً من سائر المهن والعلوم. وسموهم بأسماء وألقاب عربية.

وكان الخلفاء والملوك يكرمونهم ويقدمونهم ويحترمون اعتقاداتهم وشعائرهم. حتى أن هشاماً الثانى أمر بترجمة التلمود إلى العربية ليكون فى جملة ما يعلم فى مدارس المسلمين. واستخدموهم فى مصالح الدولة واستشاروهم فى مهامها. وكان أصحاب الوجاهة منهم يركبون فى المواكب وحولهم الحاشية من الخصيان بالسلاح. وكان حسداى بن اسحق أحد كبار أحبار اليهود وزيراً للناصر فى أواسط القرن الرابع للهجرة. واستخدم الحكم ابنه بعض اليهود فى سفارات هامة إلى بعض ملوك أوربا. وكان صموئيل بن العريف وزيراً لصاحب غرناطة وهو عالم كبير فى السياسة والفلك والشعر يعرف سبع لغات. غير من كانوا يتخذونهم أساتذة للمدارس الكبرى فى قرطبة وطليطلة وإشبيلية وغيرها.

علماء اليهود فى التمدن الإسلامى

ومن كبار أحبارهم فى تلك الأعصر إبراهيم بن عزرا ولد فى طليطلة سنة ١٠٨٨م وكان عالماً بكل علوم زمانه: الطب والفلسفة والشعر والتاريخ والرحلة واللغة والدين وله مؤلفات عديدة بعضها نشر فى هذه النهضة.

وموسى بن ميمون ولد فى قرطبة سنة ١١٣٥م وهو أكبر علمائهم فى كل فن وله ذكر خاص عندهم لأنه من المصلحين لليهودية. ولذلك سموه موسى الثانى. ويسميه العرب الرئيس موسى لانه جاء مصر وصار رئيساً للأطباء فيها على عهد السلطان صلاح الدين. وله مؤلفات هامة فى العربية والعبرانية ويسميه الإفرنج (Maimonides) ألف فى العربية كتاب السراج فى تفسير الأسفار الخمسة. وله كتب طبية كثيرة وشروح عديدة فى العبرانية واشتهر ابنه إبراهيم أيضاً فى الطب ونشأ فى الفسطاط.

وسعيد الفيومى من أهل القرن العاشر للميلاد. وهو أول من نقل التوراة إلى العربية نقلاً لا يزال باقياً إلى الآن وله مؤلفات أخرى فى الشريعة اليهودية.

وابن قريش ولد فى تاهرت بافريقيا سنة ٨٧٠م له قاموس

لغوى عبرانى نحا فيه منحى فلاسفة اللغة. وهارون الكاهن ابن يوسف من أحبار بغداد فى القرن العاشر كان مناظراً لسعيد الفيومي المتقدم ذكره.

وأبوالحجاج يوسف السبتي ولد فى سبتة سنة ١١٦٠م وجاء الديار المصرية واشتغل فى الطب على الرئيس موسى المتقدم ذكره. ثم سافر إلى الشام وأقام فى حلب وخدم الملوك الأيوبيين وله رسائل في الأغذية وغيرها.

ومن فلاسفتهم ابن باروخ من أهل القرن السادس عشر. وابن كسفى ولد فى فرنسا سنة ١٢٨٠م وكان شاعراً وحكيماً ولغوياً. وحسداى بن إسحق المتقدم ذكره وهو أول من فتح لليهود علم الفقه بالأندلس وكانوا يرجعون فيه إلى أحبار بغداد. وموسى بن اليعازر خدم المعز لدين الله. وإبراهيم بن الزفان كان طبيباً مشهوراً بمصر فى أيام الفاطميين وخلف مكتبة فيها ٢٠,٠٠٠ مجلد. وسلامة بن رحمون تفقه على افرائيم المتقدم ذكره. والشيخ السديد بن أبى البيان من أطباء القاهرة فى أيام الايوبيين. والأسعد المحلى وسكرة الحلبى فى أيام نور الدين. وغيرهم كثيرون.

ومن كبار فلاسفتهم فى القرن الثامن عشر موسى

مندلسن. وهو عريق فى العلم من أبويه وأكثر عائلته من كبار العلماء. ولد فى نساو بألمانيا سنة ١٧٢٩م وله مؤلفات عديدة بالألمانية عن اليهود وآدابهم وتاريخهم يطول بنا ذكرها.

وهناك طبقة من اللغويين والشعراء منهم يهودا هاليفى ولد سنة ١٠٨٦م فى قسطيلية وسليمان بن جبيرول ولد فى مالقة سنة ١٠٢١م ومروان بن جناح ولد فى قرطبة سنة ٩٠٥م غير علماء الدين عندهم والشراح للتوراة أو التلمود. وناهيك بأهل الرحلة وأشهرهم بنيامين التودلى وغيرهم كثيرون يضيق المقام عن ذكرهم. وإنما أردنا إيراد الامثلة ليظهر للقارئ ما بلغ إليه اليهود من الاشتغال فى العلوم العربية كما كان يفعل المسلمون - فضلاً عن العبرانية وغيرها. وكان لهم تأثير كبير فى تلك النهضة. ولما أفاق الافرنج وأخذوا بأسباب المدنية الحديثة وهموا بنقل العلم إلى لسانهم اخذوا معظمه عن مدارس الأندلس كما بيَّنا ذلك فى غير هذا المكان - فاليهود شركاء العرب فى هذا الفضل.

ولكن لهم فضلاً خاصاً على مدنية أوروبا ليس لسواهم. نعنى نشر العلم بأنفسهم بعد ذهاب دولة العرب من الأندلس أو فى أثنائها. لانهم كانوا على عادتهم فى حب الاسفار وطلب

الاتجار يسافرون إلى أوروبا ومعهم العلم والمدنية ويساعدهم على التجوال في تلك البلاد معرفتهم اللغات واقتدارهم على الاختلاط مع ما يلاقونه من نصرة أبناء ملتهم حيثما حلوا. وكان ملوك أوروبا في أوائل هذه النهضة يقدرون رجال العلم قدرهم - على قدر ما تؤذن لهم علائقهم بالاكليروس. فكان اليهود يتولون أحسن المناصب العلمية ولاسيما الطب. ولم يكن يخلو ملك من ملوك أوروبا من طبيب يهودى. ومما لا ريب فيه أن أطباء ألفونس العاشر وبادرو القاسى وهنرى الثالث وجوان الثانى صاحب قسطيلة وجايم الأول صاحب أراغون وجوان الأول صاحب البرتغال كلهم من اليهود. وكان الملوك والأمراء يعاملونهم بالحسنى والإكرام ويستخدمونهم فى أعظم المهام السياسية والإدارية. ويعقدون المعاهدات الدولية على أيديهم. وبلغ من نفوذهم فى بعض الممالك حتى كانوا يركبون والأعوان حولهم. ذكروا أن يوسف بن افرايم صاحب الخراج لبادرو القاسى كان يركب ويركب معه خمسون ياوراً بالأسلحة. وكان بين أعوانه طائفة من أبناء أعيان الأسبان. وارتفعت منزلتهم في زمن ألفونسو سابيو أكثر مما في زمن

سواه فوضعوا له الأزياج المعروفة باسمه وظلت دهراً طويلاً أفضل ما يعول عليه من التقاويم.

فبعد ذهاب دولة العرب من أسبانيا تفرق يهودها فى أوروبا وحملوا معهم ما خلفه العرب من العلم والسياسة والمدنية وغرسوها حيثما حلوا ولا سيما فى فرنسا والبرتغال وإيطاليا. وكان لليهود منزلة رفيعة لدى الطبقة الراقية من الأمم. وبلغ من احترام أهل ليون لهم أنهم بدلوا يوم السوق من السبت إلى الأحد إكراماً لليهود لأنهم لا يتعاملون فى يوم السبت. وتكاثروا فى بعض مقاطعات فرنسا حتى زادوا على سكانها الأصليين واشتركوا مع العرب فى إنشاء مدارس عالية لم يكن لها شبيه فى أوروبا.

لكن رجال الاكليروس فى تلك الأعصر عادوا الى مناوأتهم وجعلوا يغرون الملوك والأمراء بهم وبما يخبئونه من الكتب والأسرار. وكثيراً ما كانوا ينجحون فيصيب اليهود أذى كثير من الاضطهاد ومصادرة الكتب. ومن جملة ثمار ذلك الإغراء أنهم ألقوا ٣٤ حملاً من الكتب اليهودية فى اللهيب فى يوم واحد فى باريس وصدرت الأوامر بتحريم كتبهم ولغتهم ومن خالف هذه الأوامر حرمته الكنيسة.

وقس على ذلك أحوالهم فى سائر أوروبا ولاسيما فى انجلترا فإنهم أخرجوا منها سنة ١٢٩٠م ولم يؤذن لهم فى الرجوع إلا فى أواسط القرن السابع عشر بتوسط حبر كبير من أحبارهم نعنى منسى بن إسرائيل من أحبار أمستردام. فإنه نال فى زمن كرومويل إذناً بذلك من مجلس عقد لهذه الغاية سنة ١٦٥٧ أما فى الممالك الأخرى فظلوا يضيقون عليهم أبواب المعاش وقد حرموهم من المشاريع الكبرى فاكتفوا بالصيرفة الصغرى. وأشاعوا عنهم إشاعات تحط من ثقة الناس بهم وهم صابرون على عادتهم من رباطة الجأش وتحمل الاضطهاد حتى نضجت هذه المدينة وشاعت الحرية الشخصية وأطلق سراح المواهب والقوى وضعفت سلطة الاكليروس فى دوائر الحكومة فتمكن اليهود من نيل ما تستحقه مواهبهم ويقتضيه سعيهم واجتهادهم من المناصب الرفيعة والثروات الواسعة على ماهو مشاهد فى أوروبا وأمريكا لهذا العهد. وربما عدنا إلى بسط حالهم فى هذا العصر فى فرصة أخرى.



الفهرس

هذا الكتاب

قبل ٩٦ عاماً، قام مؤسس الهلال، جرجي زيدان برحلة طويلة إلى فلسطين، زار خلالها معظم المدن الفلسطينية، كان زيدان مهموماً فى رحلته بدراسة الوجود الصهيونى، حيث زار العديد من المستعمرات الصهيونية، ورأى ماتقوم به على أرض فلسطين، ودرس الجمعيات الصهيونية فى أوروبا، التى تقوم بتمويل إنشاء تلك المستعمرات «المستوطنات» ودعمها معنوياً ومساندتها فى الحصول على التصاريح والتراخيص اللازمة من الولاة والجهات الإدارية فى فلسطين.

رأى زيدان فلسطين قبل الانتداب البريطانى، وتدخله الاستعمارى الغليظ، ولاحظ زيدان أن هناك عملية تهويد حقيقية لفلسطين، ففى مدينة يافا باتت الشوارع والمحلات والأسواق تحمل أسماء عبرية إلى جوار الأسماء العربية، وكان المهاجرون اليهود يضعون أسس دولة، لهم مدارسهم الخاصة ومواصلاتهم وكذلك لغتهم وثقافتهم، حذَّر زيدان مما يراه، وقال إن الحال لو استمر على ماهو عليه فى فلسطين، فخلال عشرات السنين لن يكون للعرب مكان فيها ، ولم ينتبه أحد إلى التحذير، فكان ماكان.

هذا الكتاب يقدم النص الكامل لرحلة زيدان إلى فلسطين.



عن جورج سانتايانا
وكتابه : حياة العقل

نقله وعرضه عن الإنجليزية:
رجائى عطية

يصدر ٢٠٠٩/١١/٥